

المكتبة الثقافية

الأقصر في العصر الإسلامي

دراسة تاريخية

محمد عبده الحجاجي

● **هذا الكتاب :**

يعرض لدراسة مدينة الاقصر فى العصر الاسلامى ، ومظاهر الحياة الأثرية والاجتماعية والدينية فيها ، ويشرح التقاليد العريقة فى البيئة الاقصرية ، كما يرصد الحركة التعليمية ، ودور الكتاتيب والزوايا والمساجد فى تخريج بعض من نعرف من الأعلام .

● **الكتاب القادم :**

حافظ ابراهيم بقلم زكى مبارك

اعداد وتقديم : كريمة زكى مبارك

١٠ قروش

١٩٢٥

الإهـداء

الى روح والدى يرحمه الله

تمهيد

اتخذ المصريون القدماء من مدينة طيبة (الأقصر) عاصمة لملكهم فى عصر الدولة الحديثة فكان أن اكتسبت هذه المدينة على اثر ذلك شهرة واسعة وصيتا بعيدا بين سائر المدن فى ذلك الوقت .

وقد شهدت أرضها بطولات وأمجادا وأرسى الانسان على أديمها أعرق حضارة عرفتها الانسانية منذ أقدم العصور .

وحينما تعرضت مصر لغزو اليونان واضطهاد الرومان اضمحل شأن هذه المدينة وأخذت شهرتها تخبو رويدا رويدا وفقدت بذلك أبهة الملك وصولجانه .

وفى عصور المسيحية كان أهم ماتمتاز به هذه المدينة هو الهدوء والأمن والاطمئنان وذلك بحكم موقعها الجغرافى بعيدا عن تيارات الحروب الطاحنة التى كان يدور رحاها فى ذلك الوقت فكان أن أصبحت ملجأ وملاذا للعديد من الرهبان

والقسيسين والكهنة والشعراء الذين لجأوا اليها يستمتعون بهدوئها ويؤدون شعائرهم وطقوسهم الدينية فى أمن واطمئنان ويتمتعون من جانب آخر بجوها الدافىء وشمسها الساطعة خاصة فى فصل الشتاء .

وحينما فتح عمرو بن العاص مصر فى حوالى سنة ١٨ ــ ٦٤٠ م لم يكن لهذه المدينة شأن يذكر وظلت كذلك حتى العصر الفاطمى الذى لم تكن فيه سوى مدينة تخضع اداريا لأقليم قوص .

وفى أواخر حكم صلاح الدين الأيوبى استقبلت الأقصر عددا من العلماء والفقهاء ورجال الصوفية على رأسهم العارف بالله أبو الحجاج الأقصرى الذين استقروا بها وقبروا بأرضها وكان لهم فضل عميم فى نشر الثقافة الاسلامية والتربية الروحية بين ربوعها ، وبدأ الناس على أثر ذلك يتجهون اليها من كل صوب وحدب فعمرت ودبت فيها الحياة وأصابها جانب كبير من النشاط والتقدم وقد زارها كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب وأشاروا اليها فى مؤلفاتهم .

وفى عصر سلاطين المماليك بدأ وجه المدينة الاسلامى يشرق على ربوة مرتفعة فوق أطلال معبد آمون وأخذت تنمو وتمتد على الجانب الشرقى من النيل حتى شملت فى امتدادها مشارف معبد الكرنك وأنشئت بها المساجد والربط والزوايا ودور الضيافة وعمرت أسواقها وحوانيتها وقامت بها المكاتب والمدارس وخبر أهلها العديد من الصناعات ومارسوا التجارة

ومن ثم أصبحت هذه المدينة لا تقل أهمية عن سائر مدن الصعيد فى ذلك الوقت كاسنا وقفط وقنا وغيرها .

وبين يدى القارىء الكريم هذه الصفحات اليسيرة من تاريخ الأقصر منذ الفتح العربى لمصر حتى نهاية عصر سلاطين المماليك اى على مدى تسعة قرون متكاملة جمعت مادتها العلمية من كتب الجغرافيين والرحالة العرب الذين زاروا مصر خلال هذه الفترة بجانب كتب التاريخ والطبقات التى من أبرزها كتاب العالم الفقيه عبد الغفار بن نوح الأقصرى الموسوم « بالوحيد فى سلوك أهل التوحيد » والطالع السعيد للعلامة المؤرخ أبى جعفر الادفوى وهما من علماء ومؤرخى القرن الثامن الهجرى « الرابع عشر الميلادى » عاشا فى صعيد مصر فى عصر سلاطين المماليك وكان لهما فضل عظيم فى الكتابة عن تاريخ الصعيد وتاريخ علمائه وفقهائه ومتصوفته بالاضافة الى كتاب المدخل لابن الحاج المتوفى سنة ٧٣٢هـ الذى حوى كثيرا من العادات والتقاليد الاسلامية التى كان معمولا بها فى مدن الديار المصرية خلال تلك الفترة، ونحن لا نزعم اطلاقا أننا قد أعطينا هذا الموضوع حقه بحثا ودراسة بل ان هذه المحاولة من جانبنا لا تعدو كونها علامة على تاريخ الاقصر فى العصر الاسلامى ونأمل أن يكون المستقبل القريب أكثر عطاء وسخاء لمن يهمهم أمر تاريخ هذه المدينة خلال هذه الفترة حتى تكتمل صورة الاقصر الاسلامية كما سبق أن اكتملت صورتها الفرعونية .

والله ولى التوفيق

كيف نشأت الأقصر الاسلامية ؟

كانت مدينة الأقصر فى العصور السابقة للفتح العربى لمصر مجرد مدينة خربة ينعق البوم فى هياكلها ومعابدها التى أتى عليها غزاة اليونان هدما وتخريبا ، وحينما تعرض أقباط مصر لاضطهاد الرومان كانت هذه المدينة بحكم موقعها الجغرافى بعيدة عن نار الحروب والفتن التى كان يدور رحاها فى الشمال فى ذلك الوقت فأكسبها ذلك هدوءا وأمنا واستقرارا ترتب عليه أن أصبحت ملجأ وملاذا للعديد من الأقباط وقسيسيهم ورهبانهم وكهنتهم الذين هرعوا الى معابدها وهياكلها القديمة يقيمون فى جوانبها كنائس لهم وأديرة ومارسوا على أرضها حياة النسك والعبادة والزهد والتقشف فى أمن وهدوء واطمئنان .

وفى أوائل الفتح العربى لمصر شاهدها المسلمون لكنهم أنفوا الاقامة فيها اعتقادا منهم انها موئل الشرك

والوثنية لا يحل العيش بها وظلت كذلك لم تحظ بنصيب من تقدم سوى انها أصبحت خلال العصر الفاطمى تشترك مع قفط فى كورة وتخضع من الوجهة الادارية لاقليم قوص . وبدأ يسكنها عدد من المغاربة الذين صحبوا جيوش الفاطميين فى فتحهم لمصر شأنها فى ذلك شأن أغلب مدن الصعيد .

ثم كانت الدولة الأيوبية وفى أواخر حكم صلاح الدين الأيوبى بدأ وجه مدينة الأقصر الاسلامى يظهر شيئا فشيئا حينما تحولت كنيسة الأقصر التى كانت قد أنشئت فى أوائل عصور المسيحية الى مسجد وزاوية لابى الحجاج الأقصرى بجانب جبانة اسلامية دلت عليها الحفريات التى أجريت حديثا ، وفى عصر سلاطين المماليك أخذ الناس يجدون فى تشييد منازلهم التى كانت تتكون من طابقين من اللبن ملاصقة لمسجد سيدى أبى الحجاج ... وبدت للعيان صغيرة حسنة كما وصفها بذلك الرحالة المغربى ابن بطوطة الذى زارها فى أواخر النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى .

وقد اندرست هذه المدينة فى عصرنا الحديث ولم يبق لها من أثر الا اسمها الأقصر القديمة الذى ما زال يتغنى به أهلها المحدثون . ومسجد أبى الحجاج الأقصرى ومنارته الأثرية وقد اكتشف تحت أنقاضها بقية معبد الأقصر .

وفى نشأة المدن وتسميتها واندراسها أيضا يحدثنا التاريخ عن أساطير وقصص شعبية يتوارثها الأجداد والأبناء والأحفاد ويعملون جاهدين على ترسيخها فى أذهان الأجيال اللاحقة فنقرأ مثلا فى كتب التاريخ ومعاجم البلدان عن كثير من هذه الأساطير والروايات ونسمع المزيد أيضا من القصص الشعبى حول نشأة المدن وتسميتها واندراسها فى الشرق أو الغرب وبصفة خاصة فى الشمال الأفريقى فمن هذه القصص قصة تأسيس مدينة قرطاجنة التى وقعت فصولها فى القرن التاسع قبل الميلاد وكانت بطلتها اليسيا ابنة ملك صور الفينيقى والتى تقول (••• كان لملك صور الفينيقى ابنة تدعى اليسيا أو ديدو كما كانوا يلقبونها يتمشى الجمال الفتان فى كيانها وتشيع الأنوثة الفاضحة فى جسمها قد اغتال أخوها الذى تولى ملك صور بعد وفاة والدها غدرا وخيانة زوجها الذى كانت تحبه حبا ملأ عليها مجامع قلبها طمعا فى ماله وجاهه فاستشاطت زوجة القتيل غضبا وأجنها الألم لهذه الخطيئة التى أقدم على ارتكابها أخوها وقررت الفرار من صور مبعث قلقها على فقد زوجها ومصدر الذكريات الأليمة التى لا تنقطع واتجهت الى قبرص مصطحبة فى ركابها من سرها أمرهم وأعجبها سلوكهم حاملة معها من حسان العذارى ليتزوج منهن رجالها • فلما بلغ أخاها أمر فرارها هذا اهتاج غضبا واعتزم أن يطاردها أنى حلت حتى يظفر بها ويطعنها الطعنة التى تلحقها بزوجها وتوسلت اليه أمه

أن يعدل عن قتلها والتمست عنده العفو عنها وكان قد تنبـــأ له العرافون أن أخته اليسيا ســوف تنشىء مدينة سيقدر لها أن تكون أعظم مدن الارض حظا وأوفرها فى القوة نصيبا وحذروه من مقاومتها واعلنوه بالشر ينتظره فى غده ان مانع فى تأسيس هذه المدينة فاستجاب لهــذه النبوءة وأحجم عما اعتزمه مخافة أن تلحقه لعنة الآلهــة ويدركه انتقامها وتتقدم اليسيا الى شمال أفريقيا بعد أن تركت قبرص حيث وجدت اناســـا يميلون الى الغرباء ويحثون الى لقياهم ويقبلون على التجــارة معهم عن رضى وشغف فابتاعت من أهل هذه المدينة قطعة أرض تربض على خليج تونس فى شاطىء أفريقيا الشـــمالى لا تتجاوز مساحتها ما يشمله جلد ثور وبعد الحصول على الاتفاق على البيع مع سكان هذه البلاد أمرت اليسيا اتباعها بعد ذلك بقد الجلد قدا رفيعا فى صورة سير طويل أحاط بقطعة أكبر من التى كانت تظهر الاقتناع بها ونمت فى هــذا المكان مدينة جميلة أطلقوا عليها قرطاجنه أى « المدينـــه الجديدة » وازدهرت وشاع أمرها طولا وعرضا وكان الناس يتسابقون الى الحديث عنها وعن ملكتها اليسيا ويتبارون فى الكلام عن فتنتها وجمالها وعذوبة صوتها وســلوكها وأخلاقها ....

واذا ما انتقلنا الى نشأة مدينة الأقصر الاسلامية نجد فى تراث هذه المدينة الشعبى قصة شـــبيهة تمام الشبه بهذه القصة التى أوردناها يتوارثها أبناء هذه المدينة جيلا

بعد جيل عن آبائهم وأجدادهم وقعت فصولها فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وهى تحكى نشأة الأقصر الاسلامية وتقول فى ايجاز (٠٠٠ فى أوائل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت تعيش فى مدينة الاقصر راهبة مسيحية تدعى تريزه بنت القيصر تنحدر من أصل رومانى كما هو شائع متواتر وتعمل راعيـــة لكنيسة كانت تقع فى الجانب الشرقى من معبد الاله آمون بالأقصر وتعتبر بمثابة الكنيسة الام لكنائس وأديرة طيبة يقصدها مسيحيو هذه المنطقة لاقامة الشعائر والطقوس الدينية بها وقد كانت هذه الراهبة المسيحية ذات مهابة ونفوذ وســـلطان على مسيحى طيبه وموضـــع تقديرهم واجلالهم وهى فوق ذلك على جانب كبير من الجمال الأخاذ والفتنة الباهرة ٠٠ وبينما هـــذه الراهبـــة تنعم بهيلها وهيلمانهـــا هـــذا اذ تنبأ لها ذات ليلة أحد كهنتها بأن شخصا غريبا سوف يحل بالمدينة له من الورع والجلال والتقوى ما يجعله ينتزع منها نفوذها وسلطانها هذا ، وان هى اعترضت طريقه سوف يحل عليها غضب السماء وتحيق بها لعنتها فباتت نكدة مهمومة تخاف هذه النبوءة وتخشى على مكانتها من الزوال ـ لذلك أمرت حراسها أن يأتوها بكل غريب تطأ قدمه أرض مدينتها ٠٠ وفى أثناء ذلك دخل أبو الحجاج الأقصرى هو وأولاده ورفاقه من العلماء والصوفية هذه المدينة ونزلوا بجانبها القبلى فاعترض طريقه هؤلاء الحراس لكنه ألح فى الاقامه وأظهر أنه قادم

من الحجاز متعبا مكدودا ولا يطمع فى أكثر من الراحة من عناء السفر فعرضوا أمره على الراهبة واستصدروا أمرا منها بالسماح له بالاقامة على أن يراقبوه ويتسقطوا أخباره فوقفوا على أنه يداوم على الصلاة وقراءة القرآن واقامة الأذكار ليل نهار فرفعوا أمره الى الراهبة التى رأت أنه شخص لا يخشى جانبه فتركته لعباداته وصلواته ...

وبعد فترة طلب أبو الحجاج من هذه الراهبة أن تسمح له بامتلاك قطعة أرض بالمدينة ما يساوى اتساعها مقدار جلد جمل يقيم عليها مدى حياته فأجابته بعد لأى الى طلبه هذا بعقد كتابى بينها وبينه بشهود أحد مستشاريها وأخذ أبو الحجاج هذه المساحة من الأرض ولما جن عليه الليل وأمن جانب الحراس بدأ فى قد جلد الجمل قدا رفيعا بمدية حادة حتى كون منه سيرا طويلا وربط أول هذا السير الطويل فى احد أعمدة معبد الأقصر وحينما بدأ فى تنفيذ فكرته هذه دب فى نفسه الخوف مغبة أن يكشف أمره فبدلا من أن يتجه بهذا السير الطويل مباشرة ناحية الجهة اليمنى لهذه المدينة اتجه ناحية الشمال ومع مطلع الفجر كان أبو الحجاج قد لف المدينة بأسرها بهذا السير الطويل ثم أدى صلاة الفجر وأعلن فى الناس أنه قد ملك الأقصر بما يساوى جلد جمل طبقا للاتفاق المبرم بينه وبين هذه الراهبة المسيحية فاسقط فى يد هذه الراهبة وهنا تذكرت نبوءة كاهنها وتذكرت أيضا أنها ان هى اعترضت طريقه سوف يحل عليها غضب السماء وتحيق بها لعنتها فوقفت سلبية

الارادة لا تملك الا أن تعترف بالأمر الواقع وأعجبت بذكاء الشيخ أبى الحجاج وعميق ايمانه وقوة شخصيته خاصة بعد أن خاضت معه فى جدل عقائدى حيث كانت غزيرة العلم والمعرفة ينتهى بانتصار أبى الحجاج انتصارا حاسما بالأدلة والبراهين العقلية فكان أن غمر الله قلب هذه الراهبة المسيحية بالايمان فأسلمت وأسلم معها العديد من أتباعها ودانت من ثم كنيسة الأقصر هذه للشيخ أبى الحجاج فأقام عليها زاوية ومدرسة لتدريس علوم الباطن لتلاميذه ومريديه . وقد وقع هذا الحدث العظيم فى الرابع عشر من شهر شعبان دون أن تحدد هذه القصة الشعبية سنة معينة وأخذ الناس من كل صوب يتقاطرون الى مدينة الاقصر ويشاركون بكامل أحاسيسهم ومشاعرهم فى هذا الحدث وبدأوا يقيمون ويستقرون فئ رحاب الشيخ أبى الحجاج .... وأشرقت من ثم الاقصر الاسلامية بنور ربها فوق أطلال معبد الاله آمون على يد أبى الحجاج الاقصرى الذى نسبت اليه ونسب اليها وكان أول من نسبت اليه ونسب اليها من أعلام المسلمين ..

لماذا سميت الأقصر بهذه التسمية ؟

كانت مدينة الأقصر تسمى فى العصر الفرعونى طيبة (Thebais) أو (Thebes) وظلت محتفظة بهذه التسمية حتى الفتح العربى لمصر ١٨ هـ ٦٤٠ م وحينما عرف العرب طريقهم الى الصعيد واكتشفوا مدنه لم يغيروا من أسمائها فظلت أغلب مدن الصعيد كأسيوط وقنا وقفط وقوص واسنا وادفو وأسوان محتفظة بأسمائها التى أطلقت عليها فى العصور السابقة للفتح العربى اللهم الا من تحريف يسير فى الكتابة أو اللفظ فقد كانت مثلا مدينة أسيوط تسمى قديما ساووت ثم سيوط وقنا « اقنى » وقفط (قوبطى) وقوص (قوبس) واسنا (سنى) وادفو « تفو » وأسوان (سوان) وهذه الأسماء أما مصرية قديمة أو يونانية أو قبطية وهى تشير فى هذه اللغات القديمة الى اسم معبود أو طائر أو حيوان أو نبات أو تدل على معنى معين كانت ـ توصف به هذه المدينة أو تلك . لكن الأمر يختلف جد

الاختلاف مع مدينة الأقصر فحينما شاهد العرب هذه المدينة انبهروا لعظمة هياكلها ومعابدها الأثرية القديمة التى كان جزء منها ظاهرا معروفا فى ذلك الوقت فكان أن غيروا اسمها القديم كلية وأطلقوا عليها الأقصر وهو جمع قلة لقصر ظننا منهم أن هذه المعابد والهياكل تشبه تلك القصور التى سبق لهم أن شاهدوها فى بلاد فارس والروم .

وقد اختلف الكثير من المؤرخين والرحالة العرب فى ضبط اسم هذه المدينة فمنهم من يقول انها الأقصر بفتح الهمزة وضم الصاد المهملة ومنهم من يقول انها الأقصر بضم الهمزة وضم الصاد المهملة وفريق يطلق عليها الأقصرين مثنى الأقصر سواء بالضم أو الفتح ..

فالمؤرخ المعروف باليعقوبى المتوفى ٢٨٤ هـ(٨٥٥) م والذى يعتبر أقدم مؤرخ أشار الى هذه المدينة قد ضبطها فى كتابه « البلدان » بفتح الهمزة وضم الصاد المهملة ثم تبعه فى ذلك من جاء بعده من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب فى القرن السادس والسابع والثامن من الهجرة كياقوت الرومى المتوفى ٦٢٦ ـ ١٢٢٨ م فى معجم البلدان وأبى الفدا المتوفى ٧٣٢ هـ ١٣٣١ فى تقويم البلدان وابن عبد الحق ٧٣٩ هـ ١٣٣٦ م فى مراصد الاضطلاع والادفوى المتوفى ٧٤٨ هـ ١٣٤٧ م فى الطالع السعيد وابن بطوطه ٧٧٩ هـ ١٢٧٧ م فى الرحلة والمقريزى ٨٤٥ هـ ١٤٤١ م فى المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

هذا من حيث ضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهملة .

أما من حيث ضبط اسمها بضم الهمزة وضم الصاد المهملة فقد أورده أبو الحسن الهروى السائح المغربى المتوفى ٦١١ هـ ١٢١٤ م فى كتابه الاشارات الى معرفة الزيارات وشمس الدين الأنصارى المتوفى ٧٢٧ هـ (١٣٢٨ م) فى نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر والقلقشندى المتوفى ٨٢١ هـ ١٤١٨ م فى صبح الأعشى فى صناعة الانشا .

واذا ما انتقلنا الى تسميتها بالأقصرين سواء بالضم أو الفتح وهى مثنى الاقصر نجد أن ابن مماتى المتوفى ٦٠٦ هـ ١٢٠٥ م قد أطلق عليها هذه التسمية فى كتابه قوانين الدواوين ثم استخدم أبو الحجاج الأقصرى المتوفى ٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م هذه التسمية بصورة واضحة فى رحلته الحجازية حيث يقول « وسافرت الى بلدة تسمى الأقصرين » ثم شاعت هذه التسمية فى عصر سلاطين المماليك حتى اننا نجد أن أغلب مؤرخى هذه الفترة يذكرونها فى مؤلفاتهم بالأقصرين فعبد الغفار بن نوح الأقصرى المتوفى ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) يشير الى هذه المدينة التى هى مسقط رأسه فى كتابه الوحيد فى سلوك أهل التوحيد بالأقصرين بالاضافة الى أن ابن دقماق ٨٠٩ هـ (١٤٠٦ م) فى كتابه الانتصار بواسطة عقد الأمصار وابن الجيعان ٨٨٥ هـ

(١٤٨٢م) فى التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية قد أشاروا اليها بالأقصرين أيضا ٠

« والاقصرين » مثنى الأقصر (الأقصر والكرنك) والكرنك هذه قرية تقع على الجانب الشرقى من النيل وتبعد عن الاقصر بمسافة قدرها اكثر من اثنين من الكيلو مترات وبها أحد المعابد المصرية القديمة المعروفة ٠

وبجانب هاتين التسميتين لهذه المدينة نجد أن الرحالة والمؤرخين الأوربيين فى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادى ونخص بالذكر منهم الرحالة الفرنسى سونى (Sonni) وسافارى (Savary) والمستشرق الفرنسى لا فايت والعالمان الاثريان الفرنسيان جورج لجران وماسبيرو بجانب دوائر المعارف والموسوعات الاوربية على اختلافها قد أطلقوا على هذه المدينة لقصر أو لقصور ٠
Luxor — Loksor — Loqusor

ثم أضاف أهل الصعيد الى هذه التسمية أبو الحجاج فأصبحت تعرف بين الخاص والعام بالقصر أو لقصور أبو الحجاج تيمنا بهذا الولى الصالح ، الذى استوطنها وعاش بين ربوعها حتى وفاته ٦٤٢ وما زال لهذه التسمية صدى حتى يومنا هذا ٠٠

الأقصر كما وصفها المؤرخون والجغرافيون والرحالة العرب « فى العصر الاسلامى »

لقد تعرض لوصف هذه المدينة فى العصر الاسلامى كثير من المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب . الا أن حديثهم عنها كان ضيقا مقتضبا يختلف من مؤرخ الى آخر فمنهم من اعتنى اعتناء تاما بضبط اسمها وعلل سبب تسميتها ومنهم من شاهدها وشاهد آثارها المصرية القديمة قصورها ووصفها بقرر فهمه لها . وحينما أخذت هذه المدينة فى النمو والاتساع فى عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة بدأ كثير من المؤرخين فى هذا العصر يتحدثون عنها بشىء من الوضوح فأتاح لنا ذلك أن نقرأ عن مساحتها بوجه عام ومساحة أراضيها المنزرعة وما بها من نخيل وأعناب وما قام بها أيضا من صناعات بالاضافة الى أن هؤلاء المؤرخين لم يغفلوا الحديث عن الناحية الثقافية والروحية بها ..

فمنذ الفتح العربى لمصر حتى قيام دولة الفاطميين كانت هذه المدينة خربة كما وصفها بذلك المؤرخ المعروف

باليعقوبي المتوفى ٢٨٤ هـ (٨٩٧م) وهو من مؤرخى القرن الثالث الهجرى فى كتابه البلدان حيث يقول « الأقصر وهى مدينة خربة وصارت مكانها مدينة قوص وهى على شاطىء النيل من الجانب الشرقى .

وفى عصر الدولة الفاطميـــة ٢٩٧ هـ ـ ٥٥٥ هـ (٩٠٩ م ـ ١١٦٠م) حينما اتخـذ الفاطميون من مدينة قوص عاصـــمة للصعيد كانت الأقصر خـلال هذه الفترة تشترك مع مدينة قفط فى كورة ويخضعان اداريا للأعمال القوصية ثم سرعان ما انفصلت عنها ولم يرد لهذه المدينة ذكر عند مؤرخى هذه الفترة ، فالمقدسى البشارى وهو من مؤرخى القرن الرابع الهجرى لم يشر اليها من قريب أو بعيد فى كتابه أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم وكذلك الرحالة الفـــارسى ناصر خسرو ٤٨١ هـ (القرن الخامس الهجرى) الذى زار مصر خلال حكم الفاطميين ووصف أغلب مدنها من القاهرة حتى أسوان لم يتعرض للحديث عن هذه المدينة البتة فى كتابه سفر نامه الذى وضعه بالفارسية بالاضـــافة الى أن الشريف الادريسى المتـوفى ٥٦٠ هـ (١١٦٤ م) الذى أطنب فى الحديث عن أغلب مدن الصعيد فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق لم يتطرق لهذه المدينة .

وفى زمن الأيوبيين ٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ (١١٧١ م ـ ١٢٥٠ م) بدأت هذه المدينة تظهر شيئا فشيئا وأخذت صورتها تتضح معالمها حينما عرف الطريق اليها عدد من

العلماء ورجال الصوفية ٠٠ فقد زارها خلال هذه الفترة الرحالة المغربى أبو الحسن الهروى المتوفى ٦٦١ هـ ١٢١٤م (القرن السابع الهجرى) والمعروف بالسائح الهروى الذى انبهر بآثارها المصرية القديمه فوجه جل عنايته لوصفها فنراه يقول فى كتابه الاشارات الى معرفة الزيارات ما نصه (٠٠٠ مدينة الأقصر بها من الآثار والقصور والأصنام وصور السباع والدواب ما لم أر مثله فى بلاد الصعيد ولا فى غيرها وقد زرعت يد صنم من الحجر المانع فكان من المرفق الى مفصل الكف سبع أذرع وكان فى يدى سعفة من جريد النخل فعملتها قلما وكتبت على هذا الصنم « بسم الله الرحمن الرحيم » أولم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » وأرخت الكتابة فجاءت من ثدى صنم الى ثديه
يظلمون » وأرخت الكتابة فجاءت من ثدى صنم الى ثديه
وكتبت تحت هذه الكتابة ٠

أين الجبابرة الأكاسرة الألى

كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا

من كل من ضاق الفضاء بجيشه

حتى ثوى فحواه لحد ضيق

رحم الله من نظر واعتبر

ثم يأتى بعد ذلك ياقوت الرومى المتوفى ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) القرن السابع الهجرى ليقول عن هذه المدينة في معجم بلدانه (·· الأقصر كأنه جمع قلة اسم مدينة على شاطىء النيل بالصعيد الأعلى فوق قوص وهى أزلية قديمة ذات قصور ولذلك سميت الأقصر ·

وفى عصر سلاطين المماليك ٦٤٨ هـ ـ ٩٢٣ هـ (١٢٥٠م ـ ١٥١٧م) الذين استمر حكمهم لمصر زهاء ثلاثة قرون أخذت مدينة الأقصر فى النمو والاتساع والازدهار وقد وصفها كثير من مؤرخى هذا العصر فشمس الدين الأنصارى المتوفى ٧٢٧ هـ ١٣٢٦ يقول عنها (·· الأقصر مدينة صغيرة يعمل بها الفخار المجلوب الى البلاد لكن الحمصى أرفع وألطف منه عملا وطينا ويقول فى موضع آخر انها يتبعها أربع قرى · ثم يأتى أبو الفدا المتوفى ٧٣٢ (١٣٣١م) فيصفها فى كتابه تقويم البلدان قائلا (·· أقصر بفتح الألف وسكون القاف وضم الصاد المهملة وفى آخرها راء مهملة من الصعيد الأعلى وجنوبى قوص فى البر الشرقى على نحو مرحلة من قوص ، والأقصر بلدة بها مزدرع ونخيل وهى على حافة النيل ويعمل بها الفخار من المشربات وغيرها وينقل الى البلاد ولم يضف صفى الدين ابن عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفى ٧٣٩ هـ ١٣٣٨م فى مراصد الاضطلاع شيئا على ما سبق أن قاله ياقوت الرومى فى معجم البلدان عن هذه المدينة ثم جاء بعده المؤرخ المعروف بالادفوى ٧٠٧ هـ ليتحدث عن هذه المدينة فى طالعه

السعيد حديثا متناثرا فتراه يقول وبالأقصر الفخار الأقصرى ليس فى ديار مصر مثله وعنبها فى غاية الحسن والكبر وبها مدرسة لطلب العلم الشريف وفى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى زارها الرحالة المغربى ابن بطوطه المتوفى ٧٧٩ هـ ١٣٧٧ وأشار الى زيارته لها فى رحلته المعروفه قائلا (.. ثم سافرت الى الأقصر وضبط اسمها بفتح الهمزة وضم الصاد المهملة وهى صغيرة حسنة وبها قبر الصالح العابد أبى الحجاج الأقصرى وعليه زاويته وقد ترك لنا المؤرخ المصرى المعروف بابن دقماق المتوفى ٨٠٩ هـ ١٤٠٦م وصفا مسهبا عن هذه المدينة جمع فيه أغلب ما سبقه اليه المؤرخون فيقول (.. الأقصرين وجزائرهما عبرتهم تسعة آلاف دينار ومساحتهم ستة عشر ألف فدان وفدان واحد وهم جارين فى اقطاع المجلس العالى السيفى أرغون بن قشبغا أحد الأمراء العشراوات وهما بالبر الشرقى من النيل وبهما عنب فى غاية الحسن والكبر وبهما مدرسة لطلب العلم الشريف ويعمل فى هاتين البلدتين من الفخار الأبيض النقى الرفيع الذى ليس يعمل بديار مصر مثله ولا ما يقاربه وبهما ضريح سيدى الشيخ الصالح أبى الحجاج الأقصرى الزاهد شيخ زمانه وواحد أوانه صاحب الكرامات والمكاشفات وهو أحد من انتفع الناس ببركاته وصالح دعواته وتاب على يده جماعة كثيرون وبهما الصنمين الذين منحوتين من الحجارة المعروفين بشامه وطامه وبينهما وبين

قوص مرحلة وبهما مزدرع ونخيل وفخارهما ينقل منهما الى سائر البلاد) .

وفى حديث شهاب الدين القلقشندى المتوفى ٨٢٣ هـ ١٤٢٠ م فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الانشا عن هذه المدينة ما نصه (... أما الأقصر فبضم الهمزة وسكون القاف وضم الصاد المهملة وراء مهملة فى الآخر وتسمى الأقصرين أيضا على التثنية وهى مدينة خراب بالبر الشرقى من النيل وقد عمر على القرب منها قرية سميت باسمها وبها ضريح السيد الجليل أبو الحجاج الأقصرى وكانت بها بربا عظيمة خربت ...) وقد وقف المؤرخ المصرى المعروف بالمقريزى ٨٤٥ هـ ـ ١٤٤١ م أمام هذه المدينة وقفة سريعة لكنه أضاف جديدا لم نلمسه عند أحد ممن سبقوه فيقول (... الأقصر من مدائن الصعيد وأهلها المريس ومنها الحمير المريسية ...) .

كما أن ابن الجيعان المتوفى ٨٨٥ هـ ١٤٨٠م الذى كان يعاصر السلطان قلاوون قد أوضح فى حديثه عن هذه المدينة مساحتها وعبرتها فيقول : الأقصرين وجزائرهما مساحتها ١٦٨٩٠ فدان تفصيله نقا ٥٢٧٠ فدان خرس ١١٦٢٠ فدان بها رزق ٢١٦ فدان عبرتها كانت ١٨٠٠٠ دينار واستقرت ٩٠٠٠ دينار كانت باسم الامير قطلقتمرجركس والآن باسم الأمير تمراز الشمسى .

من خلال ما جاء على لسان هؤلاء المؤرخين والجغرافيين والرحالة العرب منذ القرن الثالث الهجرى حتى القرن التاسع يتبين لنا أن مدينة الأقصر كانت فى أوائل الفتح العربى لمصر خربة ليس لها من خطر مثلما كان فى العصور السابقة للفتح وبدأت تزدهر وتعمر مدينة تقع فوقها تسمى مدينة قوص وظلت الأقصر كذلك حتى نهاية حكم الفاطميين ...

وفى أوائل العصر الايوبى بدأت هذه المدينة فى الظهور حينما استقر بها عدد من العلماء والفقهاء ورجال الصوفية وعلى رأسهم العارف بالله أبى الحجاج الاقصرى وأولاده ونفر من ذوى قرباه وأصحابه فدخلها على اثر ذلك كثير من المؤرخين والرحالة العرب وأشاروا اليها فى مؤلفاتهم فهذا أبو الحسن الهروى الذى زار هذه المدينة فى أواخر القرن السادس الهجرى يتحدث عن آثارها القديمة حديثا واضحا وقد اندفع مبهورا أمام عظمة هذه التماثيل ليقيس يد أحدها من المرفق الى مفصل الكف وهو فى تصويره لهذه الآثار التى هى رمز لحضارة انسانية اندرست يعطينا صورة عن مدى نفوره منها حيث ظنها أصناما كانت تعبد من دون الله وان الله قد بطش بهذه المدينة وبملكها كما بطش بملك كسرى أنوشروان ...

وفى عصر سلاطين المماليك بدأ وجه الحياة فى هذه المدينة يتغير تغيرا تاما وذلك ما يؤكده وصف المؤرخين لها

خلال هذه الفترة ٠٠ وبلغت مساحتها ١٦٠٠١ ــ ١٦٨٩٠ فدانا ولكنه مع الأسف لم يكن يصلح للزراعة من كل هذه المساحة سوى ٢١٦ فدانا فقط وهذا يدلنا على انه لم يكن لهذه المدينة نصيب يذكر فى مجال الزراعة فى ذلك الوقت مما ترتب عليه عدم كثافة سكانها ٠٠ وهذه المساحة من الارض كانت تستغل فى زراعة القمح والشعير ويغطى الجزء الأكبر منها النخيل بظلالها الوارفة بجانب كروم العنب الذى يمتاز بالحسن والكبر كما وصفه بذلك الادفوى وقد كانت السواقى تنتشر فى أرجائها والتى هى الوسيلة الوحيدة لرى هذه الاراضى وقد بلغت عبرتها أى خراجها ٩٠٠٠ دينار كما جاء على لسان ابن الجيعان المؤرخ المصرى الذى كان يعيش فى زمن السلطان قلاوون ٠٠٠٠ ومما لا شك فيه أن هذه النخيل بظلالها الوارفة والمحاطة بكروم العنب من كل مكان ــ وهذه السواقى بأصواتها الشجية العذبة ، التى كانت تمتد فى خط مستقيم على الشاطىء الشرقى للنيل قد أكسبت هذه المدينة روعة وجمالا وحسنا دفع الكثير من مؤرخى هذا العصر أن يصفوها كذلك ــ فنحن نرى فى حديث أبى الفدا أنه يصفها بأنها بليدة وهو تصغير بلدة يعنى به فى اعتقادنا الحسن والملاحة ٠٠ وقد كانت الأقصر طبقا لنظام الاقطاع الذى كان معمولا به فى العصور الوسطى اقطاعية تجرى فى يد هذا الأمير أو ذلك ٠

ومن جانب آخر فقد قامت فى هذه المدينة صناعة الفخار التى كانت تمتد أفرانه ومعامله بظاهر الأقصر وقد مهر أهل

هذه المدينة فى هذه الصناعة وأصبحت للأقصر الزعامة فى هذا المجال بين سائر مدن الديار المصرية ثم انتقلت زعامة هذه الصناعة بعد ذلك الى قنا وقد أسهب المؤرخون فى الحديث عن الفخار الأقصرى ومعامله وأشادوا بروعته وفنيته ودقته كما أنه لم يفت هؤلاء المؤرخون فى هذا العصر أن يشيروا الى مدرسة كانت فى هذه المدينة يقبل عليها طلاب العلم والمعرفة وهذا يدلنا على نشاط علمى كانت تتمتع به الأقصر فى عصر سلاطين المماليك ومما هو واضح ملموس أيضا فى حديث هؤلاء المؤرخين ذكرهم للعارف بالله أبى الحجاج الأقصرى وضريحه . فابن بطوطه يقول « وبها قبر العابد الزاهد أبى الحجاج الاقصرى وعليه زاويته وابن دقماق يذكر قائلا .. وبها ضريح سيدى الشيخ الصالح أبى الحجاج الأقصرى الزاهد شيخ زمانه وواحد أوانه ، وكذلك القلقشندى الذى يشير قائلا ... وبها ضريح السيد الجليل أبى الحجاج الاقصرى .... وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أن أبا الحجاج الاقصرى رضوان الله تعالى عليه كان يتمتع فى عصر سلاطين المماليك بشهرة واسعة ومكانة مرموقة فى مختلف مدن الديار المصرية ...

العرب الذين سكنوا الأقصر خلال العصر الاسلامى

من الملاحظ فيما سبق أن أوردناه أن أحدا من المؤرخين والرحالة العرب لم يشر البته عن عرب سكنوا الأقصر وأقاموا بها منذ الفتح العربى لمصر . بالاضافة الى أن المؤرخ المصرى المعروف بالمقريزى فى كتابه « البيان والاعراب عما حل بأرض مصر من الأعراب » الذى تحدث فيه عن القبائل التى حلت بمصر منذ الفتح العربى والذى يعتبر مرجعا أساسيا فى هذا الجانب لم يورد ذكر لعرب نزلوا هذه المدينة فى كتابه هذا على الرغم من أن هناك قبائل عربية وبطونا وأفخاذا من المشرق والمغرب قد نزلت الصعيد كجهينه وعسير ولواته وكنده وقريش وبنو سليم وبنو الكنز والهواره وغيرهم وانه أى المقريزى قد عدد كثيرا من البلدان التى نزلت بها هذه القبائل والبطون والأفخاذ واستوطنتها وهذا يؤكد ما سبق أن أوردناه فى حديثنا عن نشأة الأقصر وهو أن هذه المدينة كانت خربة وترتب على ذلك أن أحدا من العرب منذ الفتح العربى لمصر لم يقم

بها ولم يستوطنها لقلة مواردها من جانب ولأن العرب حينما شاهدوا هذه المدينة ورأوا ما بها من تماثيل وأصنام وهياكل ظنوا أنها كانت فى العصور السابقة للفتح .. مهادا للشرك والوثنية لا يحل العيش بها فأنفوا من الاقامة فيها . وظلت هذه المدينة مقفلة على الأقباط النصـارى وقسيسيهم ورهبانهم وحينما استقرت موجات القبائل العربية من المشرق عن طريق صحراء سـيناء والصحراء الشرقية ومن المغرب عن طريق الصحراء الكبرى بدأت جميع مدن الديار المصرية وبصفة خاصة مدن الصعيد تتأثر تأثرا تاما بتيار هذه الهجرات منذ عصر الدولة الفاطمية حتى عصر الأيوبيين .

ففى حديث الشريف الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق عن قرية دمامين التى تقع فوق الأقصر بمسافة يسيرة يقول ان هذه القرية قد سكنها عدد كبير من المغاربة كما ان الأدفوى فى طالعـه السعيد يقول عن قرية اسفون التى تقع تحت الأقصر بمسافة يسيرة انها كانت تكتظ فى أعقاب الدولة الفاطمية بالمغـاربة الذين صحبوا الفاطميين فى فتحهم لمصر .

ونحن حينما نقرأ فى كتاب الوحيد فى سـلوك أهل التوحيد للعالم الفقيه عبد الغفار بن نوح الأقصرى نلمس حديثا واضحا عن علماء وفقهاء وصوفيه لقيهم هذا العالم الفقيه وعاصرهم فى أرض الصـعيد وبصفة خاصـة فى مسقط رأسه الأقصر — وهؤلاء ينسبون الى عديد من المدن

فى المشرق والمغرب قد نزلوا مدينة الأقصر هذه فنقرأ مثلا عن عالم أو فقيه من المهديه وشيخ جليل من قرطبه ببلاد الأندلس وآخر من مكة أو اليمن أو بلاد واسط أو الموصل بالعراق وهذا يدلنا على أن هذه المدينة لم تكن تخلو من عرب أقاموا بها واستوطنوها منـذ عصر الدولة الفاطمية حتى عصر سلاطين المماليك .. ومما يؤكد صحة هذا القول تلك الحفريات التى أجريت فى عصرنا الحديث حول مسجد سيدى أبى الحجاج الأقصرى والتى كشفت عن جبانة اسلامية مترامية الأطراف كانت تضم رفاة العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة من بلاد المشرق والمغرب .

ففى أعقاب الدولة الفاطمية نزلها الشيخ المعروف بالصابونى هو وأولاده واستقر بها والراجح أن هذا الشيخ نزح الى هذه المدينة من قرطبة ببلاد الأندلس والدليل على ذلك أن عبد الغفار بن نوح الأقصرى فى حديثه المتناثر عن أولاد هذا الشيخ فى كتابه الوحيد يذكر أحد أولاد الصابونى هذا وهو علاء الدين بالصابونى مرة وبالقرطبى مرة أخرى .

وفى أواخر حكم صلاح الدين الأيوبى استقر بها العارف بالله أبو الحجاج الأقصرى العراقى المولد والنشأة هو وأولاده ونفر من ذوى قرباء وأصحابه الذين من أشهرهم عبد المنعم الاشقرين فهد وأتباعه وهم من مكة كانوا قد صحبوا الشيخ الأقصرى فى رحلته من الحجاز الى الديار

المصرية ... وقد كان لدخول الشيخ أبى الحجاج الأقصرى هذه المدينة وانشغاله بتدريس علوم الحقيقة والشريعة بها وما أصابه من خلال ذلك من سمعة مرموقة وصيت بعيد فى مختلف مدن الديار المصرية أثر كبير فى جـذب الكثير من عرب الحجاز والكثير أيضا من الأسر العربية التى كانت تقيم فى مختلف مدن الصـعيد التى تقع بصفة خاصـة بالقرب من الأقصر فى شمالها أو جنوبها .. فالعبابده وهم من عرب الحجاز اتجهوا الى مدينة الأقصر عن طريق صحراء عيذاب (الصحراء الشرقية) وأقاموا بجانب هـذه المدينة الشرقى وهم أهل ورع وصـلاح وتقوى يعملون فى رعى الماشية والاتجار فى النباتات الطبية . وكذلك المريس كما يشير الى ذلك المقريزى وهم جنس سودانى كانوا يقطنون الأراضى الواقعة بين أسوان ووادى حلفا التى كان يطلق عليها فى القـديم بـلاد المريس . والمعروفة حاليا ببلاد النوبة ـ نقـول ان المريس هؤلاء قد اتجهوا الى الأقصر واستوطنوها وكانت لهم دراية واسـعة بتربية الدواب والحمير ... بالاضافة الى جمع غفير من الأسر العربية ذات النسب الصريح قد استقرت فى هذه المدينة فى زمن الشيخ الأقصرى كالانصار الممثلون فى الشيخ أحمد بن عبد المجيد الانصارى الذى ينتهى نسبه بالصحابى الجليل عبادة بن الصامت . والذى تولى القضاء فى مدينة الأقصر فى زمن الايوبيين .. والحساسنه الذين ينتمون الى الشيخ العالم الفقيه أبو القاسم بن حسان الأقصرى . والشيخ الفقيه

على بن بدران وولى الدين الدشـــناوى والبدر الدمشقى القاضى شرف الدين الأقصرى وعثمان بن ديب الأقصرى نصر بن جواهر وغيرهم كثيرون وكل هؤلاء ينتمون لأسر عربيـــة لها تقـــاليدها وعاداتها وطباعها عاشت على أرض الأقصر منذ عصر الدولة الفاطمية حتى عصر ســـلاطين المماليك وما زال نسل أغلبها يمتد حتى يومنا هذا .

بناء المجتمع الأقصرى

لم يكن المجتمع الأقصرى منـــذ الفتح العربى حتى أواخر حكم الفاطميين ٥٦٧ هـ ١١٦٠ م شيئا يذكر وذلك لأن بيئة الأقصر خلال هذه الفترة كانت لا تشجع على البقاء والاستقرار فليست بالبيئة الزراعية التى تجذب الفرد وتغريه وتشده الى الارتباط بها ، حقيقة أنها كانت تمتاز بالهدوء والاطمئنان لكن هذه ليست هى سمات الاستقرار والارتباط واذا كان الانسان بطبيعته ينشد الأمن والهدوء والاطمئنان وينفر من الاضطراب والفوضى والهمجية الا انه لابد أن يطمئن أولا وقبل كل شىء على طريقــة من خلالها يستطيع أن يجد ما يقيم أوده ويعينه على البقاء والتقــدم والارتقاء ٠

ونحن اذا مافتشنا فى بيئة الأقصر خلال هذه الفترة عن مغريات للانســـان للارتبـــاط أو البقــاء نعجز أن نجد شيئا فيــه ما يشــير الى ذلك ــ فهــذه المدينة قد اضمحل

شـأنها وفقدت مكانتها القديمة حينما تسلط عليها غزاة اليونان والرومان فأحالوها خرابا يبابا ينعق البـوم فى هياكلها ومعابدها الخـربة ... وظلت بصـورتها هـذه لا يسـكنها سـوى الأقباط وقسيسيهم ورهبانهم الذين اندفع أجدادهم قبل الفتح العربى اليها يحتمون بها فرارا من اضطهاد الرومان لهم فأقاموا فى أركان معابدها كنائس وأديرة وقلايات يناهزون فيها حيـاة النسـك والزهد والعبادة فى أمن واطمئنان .

وحينما شاهد العرب هذه المدينة لم يرتضوا الاقامة بها لأنهـا كانت فى اعتقادهم كمـا سبق أن أشرنا مهادا للشرك والوثنية لا يحل العيش بها .

وفى عصر الدولة الفاطمية بدأ هـذا الاعتقاد تخبو جذوته وبدأت هذه المدينة تتأثر بغزو المغاربة الذين صحبوا جيوش الفاطميين فى فتحهم لمصر شـأنها فى ذلك شـأن أغلب مدن الديار المصرية بوجه عام ومدن الصعيد بوجه خاص .

وفى زمن الأيوبيين اتجـه اليهـا عـدد من العلماء والفقهاء والصـوفية الذين انقطعوا فيهـا لتدريس علوم الحقيقة والشريعة فكان فى ذلك بعثا وتجديدا لنشاط هذه المدينـة فنزحت اليهـا أسر وعائلات من مختلف المدن واستقرت بهـا لتعيش فى رحاب هـؤلاء العلماء ورجال الصوفية الأجلاء .

ثم كان عصر سلاطين المماليك والذى فيه بدأ مجتمع مدينة الأقصر ينمو ويزدهر ويأخذ طريقه واضحا جليا بين سائر مجتمعات مدن الصعيد ..

وبدأت تتمثل فيه عدة طبقات وسوف نسوق الحديث فى ايجاز عن هذه الطبقات حتى يتسنى لنا أن نقف على مدى وضوح صورة هذا المجتمع واكتمالها .

طبقة الحكام :

وهم الذين يتولون شئون المدينة من الناحية الادارية ويفصلون بين الناس فى منازعاتهم ويشرفون على استتباب الأمن ويخضعون لأمير أو والى قوص ومنهم من كان يخضع مباشرة للقاهرة عاصمة السلطنة فمن هؤلاء قاضى العمل أو قاضى المدينة الذى كان يتولى النظر فى المظالم ويفصل فى الخصومات ويعاونه فى ذلك طائفة تسمى الشهود العدول يجلسون على المصاطب وفى الحوانيت ولهم فى نفوس الناس مكانة عظيمة من التبجيل والاحترام وهم الذين يمهدون لقاضى المدينة كل سبيل ويبصرونه بأمور قد تكون خافية عليه وكلمتهم مسموعة وقولهم فصل .

العلماء والفقهاء (المعممون) :

وهم طبقة متميزة بين الناس لها جلالها وهيبتها واحترامها ومن أرباب الوظائف الديوانية يتولون تدريس العلوم الفقهية ويشرفون على كل ما يتعلق بأمور الدين

الاسلامى . وقد تمثل جل أفراد هذه الطبقة فى مدينة الأقصر فى أولاد وأحفاد الشيخ أبى الحجاج الأقصرى الشريف الحسينى وعدد من العلماء المغاربة ـ وكان العلماء الاشراف يلبسون عمائمهم على كل منها علامة خضراء تميزها اجلالا لمقامهم وتعظيما لقدرهم كى يحسن استقبالهم ويمتازون عن غيرهم من المسلمين .

التجار :

لقد كان لأغلب أهل الأقصر دراية عظيمة بشئون التجارة وذلك بحكم طبيعة اقليم قوص الذى كانت أغلب مدنه يشتغل أهلها بالتجارة وبصفة خاصة فى زمن الأيوبيين والمماليك ـ وكانت التجارة فى مدينة الأقصر تنقسم الى قسمين التجارة الخارجية والتجارة الداخلية . فالتجارة الخارجية كانت تتمركز فى يد أسرة « أولاد الصابونى » الذين هم من قرطبة ببلاد الاندلس ، لهم مقدرة فائقة على ركوب البحار والصبر على اختراق المفاوز وقد طوفوا بالعديد من البلاد كالحجاز واليمن وعدن والهند يتجرون فى المنسوجات والعطور والأصباغ ، وقد اكتسبوا شهرة ومالا عريضا من خلال تجارتهم هذه حتى انهم كانوا يمثلون رأس المال فى هذه المدينة فى زمن المماليك بصفة خاصة وهم بجانب ثرائهم هذا وجاههم على قدر كبير من التقوى والصلاح والجود والعلم ، وكانت ديارهم مقصد الناس من كافة الطبقات لا يردون جائعا أو محروما لكنهم

قد ـ تعرضوا لجشـــع وطمع ســـلاطين المماليك والولاة فأرهقوهم بالرسوم وفرضوا عليهم الغرامات واستولوا على أموالهم فكان أن اضمحل شأنهم وتعرضوا للنكبات فهجروا الأقصر والديار المصرية وانقطع ذكرهم وأســف الناس عليهم ٠

وأما التجـارة الداخلية ففى يد أغلب أهـل الأقصر وهى تقوم على الصناعات المحلية ٠ كصناعة الفخار الذى كان يحمله أهـل الأقصر الى مختلف مدن الديار المصرية على المراكب الشراعية وظهور الدواب ٠ وكانت الأسواق تمتد بها المتاجر والحوانيت المكتظة بالمنسوجات والأقمشة الصوفية والقطنية والحرائر والطيب والعطور التى كانت تجلب من الخارج وقد كان للأقصر ســوق أسبوعى (يوم الثلاثاء) يتبادل الناس فيه البيع والشراء وبصفة خاصة الأغنام والحمير المريسية والحبوب والفواكه كالرطب والعنب التى كانت تشتهر به هذه المدينة بالاضافة الى أن أهـل الأقصر كانوا يتجـولون فى مختلف المــدن والقــرى والدســاكر يحملون على ظهور دوابهم بعض المنتجــات الزراعية والحيوانية كالزيوت والألبان ومنتجاتها من زبد ٠ وجبن ينادون عليها كى يقبل الناس على الشراء منهم ٠٠ وقد أصاب أهل هذه التجارة يسرا ورخاء ٠٠٠

الصناع والحرفيون :

من أشهر الصناع في هــذه المدينة صناع الفخار الذين سـبق أن أشرنا اليهم وقد كانوا يمتازون بالمهارة والدقة في صناعتهم هذه التي فرضتها عليهم بيئة الأقصر حيث كانت تتوافر فيها الطينة التي يصنع منها هذا الفخار في زمن المماليك بجانب أن أهل الأقصر اكتسبوا صناعات أخرى من الوافدين عليهم فهم قد مهروا صناعة الحصـير والنسيج وخبروا الحدادة والخياطة والنجارة وما الى ذلك وبجانب هـؤلاء الصـناع نرى الحرفيين وهم يتمثلون في أغلب الذين استوطنوا الأقصر من البلاد المجـاورة كقنا وقوص وارمنت وغيرهـا - فهؤلاء أما باعة متجولون أو سقاءون أو قصابون أو حلاقون أو مكاريون (لهم دراية بشئون الحمير من تربية وبيع وشراء) أو حملة المشاعل والبيارق وكل هؤلاء يطلق عليهم العوام ·

الفلاحون :

لا نقول أن هناك فلاحا بالمعنى المفهوم قد عاش في هذه المدينة وذلك لأن رقعة الأرض المنزرعة كانت في ذلك الوقت لا تتجاوز ٢١٦ فدانا كما أشار الى ذلك ابن الجيعان وانمـا كان هنـاك حفنة من هؤلاء يتولون زراعة القمح والشعير ويجمعون الرطب والعنب من الكروم والبساتين التي كانت تغطي أغلب هذه المسـاحة الممتدة على الجانب

الشرقى من النيل ـ ولم يكن للفلاح فى عصر المماليك بوجه عام ثمة وزن ، بل حتى ان كلمة فلاح هـذه كانت سبة فاذا ما أراد شخص أن يشتم آخر قـال له اخرس يافلاح يا كلب .

النصارى :

ونصارى الأقصر هـم سكانهـا الأصليون الذين ينحدرون مـن أصـل فرعونى قـديم ومنهم المولدون من اليونان والرومان ، وقد كانوا كثرة في هذه المدينة يقيمون حول المناطق الاثرية لمعبد الاقصر والكرنك والدير البحرى بالجـانب الغربى مـن الاقصر الذى كـان معبـدا للملكة حتشبسوت ـ وقد أسـلم الكثير منهم فى أوائل الفتح العربى لمصر وفى زمن الشيخ أبى الحجاج الأقصرى بصفة خاصـة ـ وقد عاش نصـارى الأقصر بجانب اخوانهم المسلمين حياة آمنة وادعة تفيض قلوبهم بالمحبة والألفة والود والاخـاء فى الوقت الذى فيه قد تحولت احـدى كنائسهم الشهيرة التى كانت بالجانب الشرقى من معبد الأقصر الى مسجد وزاوية لأبى الحجاج دون أن تراق قطرة دم واحدة على نقيض ما كان شائعا معروفا فى ذلك الوقت من قتل وسفك دم بينهم وبين المسلمين فى مدينة قوص كما جاء على لسان الكثير من مؤرخى عصر المماليك ...

المرأة ومدى نشاطها فى مجتمع الأقصر

لقد أسهمت المرأة الأقصرية فى بناء المجتمع الأقصرى فى عصر المماليك بصفة خاصة فهى قد ساعدت بطريق مباشر فى نشر تعاليم الدين الحنيف والتربية الروحية بين نساء الأقصر ـ وقد عدد ابن نوح الأقصرى فى كتابه « الوحيد » منهن صالحات عرفهن مجتمع هذه المدينة لكن حديثه لم يكن يتعدى سوى أسمائهن بجانب اشارات مقتضبة لسلوكهن وأحوالهن وهو على أية حالة يعطينا صورة عن مدى نشاط المرأة فى ذلك الوقت الذى عاش فيه ٠

فمن هؤلاء الشيخة الورعة خديجه التى كانت لها أحوال جليلة وكانت تخبر بأمور عظيمة منها انها كانت ترى الملائكة يدخلون عليها من كل باب والشيخة التقية فتوحه والشيخة الصالحة العابدة « صابره » التى كانت تقيم بظاهر الأقصرين وكانت تعظ النساء من كافة الطبقات وقد أخبر عنها الشيخ سراج الدين بن حسان

أحد عدول الأقصر وروى عنها أحوالا غريبة وكانت على رأس هؤلاء جميعا الشيخة انورعة المعروفة بالمراكشيه نسبة الى مراكش ببلاد المغرب كانت قد نزحت الى مدينة الأقصر فى عصر سلاطين المماليك هى وابن لها ادعى أنه « المهدى المنتظر » تقول ان هذه الشيخة الصالحة كانت جليلة القدر لها فى علوم الحقيقة باع عظيم بجانب سعة أفقهـا فى العلوم الدينية فاشتغلت بالوعظ والتذكير والدعوة الى الفضيلة ومكارم الأخلاق بين نساء الأقصر وقد نسخت بخط يدها الرسالة القشيرية بالاضافة الى أن ابن الزيات قد أشار فى كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة » الى السيدة فاطمة مريدة الشيخ أبى الحجاج الأقصرى وخادمته التى تأثرت به فى علم الحقيقة والشريعة وقد أخذ على يدها الكثير من نساء الأقصر ثم رحلت الى القاهرة بعد وفاة شيخها أبى الحجاج وتوفيت ودفنت بها فى الجهة الوسطى من القرافة الكبرى .

من كل هذا يتضح لنا جليا أنه كان هناك اتجاه محمود بين نساء الأقصر فى عصر سلاطين المماليك يتمثل فى هؤلاء النساء الصالحات اللائى ورد ذكرهن وكان له أبعد الأثر فى فهم المرأة الأقصرية لشئون دينها ودنياها مما ترتب عليه تنشئتها لأولادها وتربيتها لهم تربية دينية خالصة كان من شأنها أن خلقت كيانا واضحا للمجتمع الأقصرى ما زالت آثاره تمتد حتى يومنا هذا .

ولقد تمتعت المرأة الأقصرية باحترام عائلها وأولادها وذوى قرباها وذلك لوقوفها بجانبهم وأسهامها بجهد كبير فى معاونتهم فيما يقومون به من أعمال سواء فى مجال الزراعة أو الصناعة أو الأعمال اليدوية .

ونحن اذا ما تتبعنا المرأة الأقصرية فى نهارها نجد أنها تستيقظ مبكرة وتتجه الى النيل بصحبة بنات جنسها يحملن على رؤسهن المشربات يملأنها بالماء كى يقضين حاجتهن اليومية وقد اتفقن فى غدوهن ورواحهن الى النيل أن يسرن فى صف مستقيم يرددن الأغانى والمواويل بصوت عذب شجى . وحينما يمتد النهار تراها تأخذ طريقها الى السوق كى تبتاع ما تتطلبه فى شئون منزلها ثم تعكف على اعداد ما تحتاج اليه الأسرة من مأكل ومشرب .

وتستخدم المرأة الأقصرية فى أعمالها اليومية ما يسمى بالرحى التى تستعين بها فى طحن القمح والذرة واستخلاص الدقيق من هذه الحبوب الذى يصنع منه خبز القمح أو « البتاو » الذى يعد من دقيق الذرة بنوعيها « الشامية والعويجه » كما كانت تحسن صنع «المديده» و «العصيدة» و «والدشيشه» وهى أطعمة كانت مألوفة لدى أهل الأقصر وما زالت حتى يومنا هذا . وقد كان من دأبها أن تحمل ما تصنعه وتعده من طعام وشراب وتذهب به الى حيث يقيم زوجها وأولادها سواء فى السوق أو الساقية ...

ومن أهم ما كانت تمتاز به المرأة الأقصرية انها عاطفية تغار على زوجها وأولادها وتخشى عليهم من العين والنظرة فهى تحرق البخور فى منزلها على الدوام كى تمنع الحسد والرق وبصفة خاصة اذا كانت على جانب من يسر وثراء أو وهبها الله البنين والبنات ـ وكان اذا ما مسها سوء أو ألم بها مكروه تهرع من فورها الى أضرحة أولياء الله داعية متوسلة أو تسأل من له اتصال بالجن والأسياد أو تقرع أبواب المشايخ أهل الخطوة الذين اعتاد الناس أن يقرعوا أبوابهم فى مثل هذه الأمور كى تظفر منهم بالبركة أو تحظى بالتمائم والأحجبة تضعها على صدر وليدها المكروب أو تحت رأس زوجها أو ابنها المريض أو تعلقها على واجهة منزلها أو تدسها تحت عتبته كى ينقطع السوء وتنقشع الهموم وهى فى كل ذلك تنذر النذور وتهب العطايا فى سخاء ، وكثيرا ما كان يتهيأ لها فى منامها وبصفة خاصة اذا كانت حاملا أنها قد رأت هذا الشيخ أو ذلك الولى يقرع عليها باب منزلها يربت بيده على بطنها ويقول لها انك سوف تضعين غلاما ذكرا ويأمرها بأن تسميه باسمه فتستيقظ من نومها فرحة مستبشرة تحكى ما رأت فى منامها لقريبتها وجارتها . وهى تهز أعطافها فى تياه وفخر وغالبا ما يكون لهذا التهيؤ نصيب من الصحة فتضع مولودا ذكرا كما أشار الى ذلك الولى الذى رأته فى منامها فتسميه باسمه وتتوسم فيه الخير والصلاح لذلك فاننا نلمس أن كثيرا من أسماء كبار رجال الصوفية

والأولياء ما زال يرن صداها حتى يومنا هذا فنسمع عمن يسمى بالشاذلى والمرسى والدســـوقى والبدوى والقناوى وابى الحجاج وأبى الحسن والقرشى وغيرهم ولم يكن هذا الأمر قاصرا على النساء المسلمات بل تعداه الى المسيحيات أيضا فيسمين أبناءهن بأسماء لقديسيهن وشهدائهن كجرجس وبولس ومتى وسفين وما الى ذلك ٠

واذا كانت المرأة بطبيعتها تميل الى التباهى والافتخار فان المرأة الأقصرية قد فاقت بنات جنسها فى هذا الاتجاه وذلك ما نلحظه فى انها فى المناســبات والأعياد الدينية تحـــاول أن تصنع الشىء الكثير من المأكولات والفطائر والكعك والشريك ، وهى فى أيام العيد تلبس أولادهـــا وبناتها فاخـر الثياب وتأمرهم بالخروج الى الشـــارع يمرحون ويلعبون مع أقرانهم وهى تنظر اليهم من طاقـة بيتها فى زهو وافتخار ٠

ولم تكن تميـــل المرأة الأقصرية فى مجال الملبس والزينة الى التبرج فهى خارج منزلها تلبس ملابس محتشمة وتضع على وجهها القناع ٠ وأما فى داخل منزلها فكانت تلبس الملابس الزاهية وتستخدم أرقى أنواع الطيب الذى كان يجلب فى ذلك الوقت من الهنـد والحبشـــة وغيرها من الأقطار كما انها كانت تبل جسمها بالعطر وتخضب يديها ورجليها بالحنـاء أو تزين أطرافها بالوشـــم وهى لا تبدى زينتها هذه الا لبعلها الذى تداعبه فى خفة روح وحنان ٠

الحياة الاجتماعية بوجه عام فى مدينة الأقصر خلال العصر الاسلامى

كان مجتمع الأقصر فى العصر الاسلامى يتكون أهله من المشارقة والمغاربة الذين نزحوا الى هذه المدينة واستقروا بها وتناكحوا على أرضها كما سبق أن أسلفنا بجانب النصارى الذين هم من سلالة قدماء المصريين والذين يعتبرون أهل الأقصر الأصليين ، وقد أسلم الكثيرون منهم وامتزجت دماؤهم بدماء المسلمين .

وقد التقت عادات أهل المشرق وتقاليدهم بعادات أهل المغرب وتقاليدهم وتفاعلت هذه العادات والتقاليد مع تقاليد النصارى التى تعتبر امتدادا للتقاليد المصرية القديمة ونتج فى مجتمع الأقصر وحدة متماسكة من كل هذه العادات والتقاليد فى مختلف أوجه الحياة الدينية والاجتماعية .

وهذه العادات والتقاليد تتمثل بصورة واضحة فى الزواج وتكوين الأسرة والأخلاق والطباع والمعتقدات والمآتم

والأحزان والبكائيات الجنائزية ووسائل الترفيه والتسليه ومظاهر الاحتفال بالأعياد والمواسم الدينية والقومية والفنون الشعبية · وسوف نتناول الحديث عن كل هذه المظاهر التى كان لها اتجاه واضح ملموس فى مجتمع الأقصر خلال هذه الفترة والتى مازال لآثارها صدى حتى يومنا هذا ·

فالزواج وتكوين الأسرة يعتبران من أهم النظم الاجتماعية فى حياة الأفراد والمجتمعات ، لذلك فانهما يحاطان بشروط وعادات وتقاليد يجب على المجتمعات بمختلف مستوياتها الحضارية أن تلتزم بالتمسك بها · ففى مجتمع الصعيد بوجه عام نلمس صورة واضحة لشروط الزواج وعادات وتقاليد تكوين الأسرة من أبرزها الزواج المبكر وزواج الأقارب · فالزواج المبكر يرتبط دائما بفكرة الفرح والخلف فالأب تهفو نفسه فى التبكير بزواج ابنه كى ينعم نظره ويهدأ سره برؤية أحفاده يمشون خلفه فى تفاخر وعصبية من شأنها أن تدعم كيان الأسرة وتقوى عمادها بالاضافة الى أن للزواج المبكر أيضا هدفا اقتصاديا هاما هو استغلال العروس فى خدمة حماتها فى المنزل أو معاونة زوجها فيما يؤديه من أعمال ·

وأما زواج الأقارب فالدافع اليه المحافظة على التماسك العائلى وتكوين العصبية الأسرية بجانب الخشية من خروج الميراث الى الغرباء ·

المعتقدات والتقاليد بوجه عام :

كان أهل الأقصر على جانب كبير من التقوى والصلاح والخشوع والورع حتى انهم كانوا اذا سمعوا الأذان للصلاة تقشعر أبدانهم ويتركون ما فى أيديهم من صنعة أو معاش أو تجارة حتى تفرغ الصلاة ، ولقد كانت الأسواق تخلو أوقات الصلاة ولا يبقى فيها الا الصبيان ومن لا تكليف عليهم أو النصارى وكان الحداد منهم اذا رفع مطرقته وسمع الأذان رماها الى ورائه ولم يضرب بها والنجار كذلك والخياط والجزار اذا غرز غرزة أو طعن طعنة لا يستكملها واذا قضيت الصلاة ينتشرون فى الأرض ويبتغون من فضل الله .

ويتمسك أهل الأقصر فى عاداتهم وتقاليدهم الدينية والاجتماعية بتعاليم الدين الاسلامى الحنيف فيحرصون كل الحرص على أن يأخذوا من آيات الله البينات ومن آداب الرسول صلى الله عليه وسلم ما يمهد لهم طريقا واضحا جليا فى التربية الدينية وفى السلوك والآداب فهم مثلا فى سلوكهم وآدابهم لا يدخلون بيوتا غير بيوتهم حتى يستأذنوا ويسلموا على أهلها واذا ما حيوا بتحية فانهم يحييون بأحسن منها واذا ما أصابتهم مصيبة أو وقع بهم بلاء وانهم يرددون قول الله تعالى (انا لله وانا اليه راجعون) كما انهم فى سلوكهم الدنيوى وأحوالهم العامة حينما يرجون من الله قضاء أمر من الأمور يلجأون الى كتابه الكريم

يتلون بعضا من آياته وينقشون على جدران منازلهـم أو حوانيتهم أو محلاتهـم العامة ما يبشر من هـذه الآيات بالجنة أو يطمئن القلوب ويقوى العزائم أو يوسع الرزق · كما كان من عاداتهـم المتوارثة أن الرجل فى أواخر عمره يعمل على نسـخ القرآن الكريم وصـحيح البخارى بيده ويحافظ عليها فى منزله ثم يورثها أولاده وأحفاده من بعده الذين يعتبرونه ارثا قيما يتباهون به ويفتخرون ويحرصون كل الحرص على صيانته من التلف أو الضـيـاع أو الفقد ونضيف الى ذلك أنهم قد دأبوا على اقامة الأذكار والسماع وهو الذكر المصحوب بالانشـاد على الآلات الموسـيقية كالدف والطنبور والناى فى منازلهـم ودواوينهـم ودور ضيافاتهم ليلا عقب صلاة العشاء وبصفة خاصة فى ليلة الاثنين والجمعـة أو يقـرأون دلائل الخيرات للامام الجزولى السلامونى أو ينشدون بردة الامام البوصيرى ·

ومما جـرى به التقليـد بين أهل الأقصر فى ذلك الوقت أن أغلبهم كانوا يحتفظون فى منازلهم بالكثير من الكتب فى الطب الروحانى والفوائد والمجربات كمجربات الديربى التى كانوا يعتقدون فيها الشفاء وتسهيل المنفعة ، وكانوا اذا رأوا رؤيا فى منام وأرادوا أن يقفوا على تأويلها يلجأون فى ذلك الى كتاب تعبير الرؤيا لابن سيرين « كما كانوا يلتمسون فضل أسماء الله الحسنى وما أودع فى مجراها من حكم فى كتاب شمس المعارف الكبرى للامام شرف الدين أحمد بن على القرشى المعروف بالبونى المتوفى سنة ٦٢٢ هـ

وقد كان لهم أيضا اعتقاد كبير فى أوليـــــاء الله تعالى وعارفى فضله فهم يقدسونهم ويجلونهم ولهم فى نفوسهم المحل الأرفع من التقدير والاحترام وهذا التقدير والاجلال يتجلى فى الاحتفالات السنوية التى تقام تخليدا لذكراهم وكثيرا ما نراهم يطوفون بأضرحتهم فى المناسبات الدينية والمواسم والأعياد يلتمسون التبرك بهم - ويتوسلون الى الله تعالى راجين قضاء مصالحهم كما أنهم اذا ما أرادوا تأكيد صــدق ما يقولون نراهم يحلفون بهــم وبقدرهم بعــد أن يقسموا بالله العظيم أو يحلفون بالنبى عليه الصلاة والسلام فيقولون والله العظيم وحياة القناوى (عبد الرحيم القنائى) أو والنبى وأبو الحجاج) وما الى ذلك - بالاضافة الى أنهم كانوا اذا ما توسموا الخير فى شيء يرجونه أو حلت بهــم نازلة أو أحاط بهم مكروه أو نزل بهم بلاء أو كرب يرفعون أكف الضراعة الى الله العلى القدير داعين متضرعين أن يرفع عنهم هذه الكوارث وأن يفرج الكرب ويعم الخير بينهم ببركة هؤلاء الأولياء • فاذا ما استجاب الله دعاءهم ينذرون النذور وينحرون الذبائح ويوزعون الصدقات على الفقراء والمساكين بين مظاهر التكبير والفرح والسرور •

وفى حالة ما اذا داهمهم المرض أو شــــكوا من علة كأن يصــــاب أحــدهم بالحمى أو الجذام أو المس كانــوا يستشــــيرون تذكرة داود الانطــــاكى فى بعض الفوائد والمجربات أو يلجأون الى الكى والحجامة - وهو علاج عرفه العرب فى الجاهليـــة وتداووا به بالاضـــافة الى انهم قد

لمسوا على أيدى الرهبان والقسيسين النصـــارى منافع وفوائد كثيرة فى شفائهم من الأمراض الحسية أو البدنية .. وقد كانت النساء بصفة خاصة يعتقدن فى الزار ظنـا منهن ان هناك أسيادا على حد فهمهن واعتقادهن ولابد من اقامة هذه الحفلات حتى تتحدث الأسياد على لســان من تقمصته بما يطلبــه من هدايا كى تخــرج من بدنه واذا ما أعيتهم الحيــل فى كل ذلك نراهم يطرقون بيوت أهل الصدق والاخلاص المقربين الى الله تعالى الذين يعتقدون فى ايمانهم وفى سرهم وكراماتهــم فيعملون لهم ما يســمونه بالاســـتخارة ويحصنون مرضـــاهم بآيات الله الكريمة ويحيطونهم بالتمائم والأحجبة كى يطــرد عنهم الســوء والمكروه .

الاعتقاد فى الآثار المصرية القديمة :

لقد كان لأهل الأقصر اعتقاد خاص فى الآثار المصرية القديمة التى تزخر بها هذه المدينة فهم يطلقون عليها البرابى وهى جمع لكلمــة « بربا » القبطية التى تعنى بيت الروح والعبادة ويقولون عنها انها من عمائر الجاهلية الأولى وقد سخطهم الله لكفرهم وعدم ايمانهم به وقد كره العرب منذ الفتح العــربى الاقامة فى هذه المدينــة لكثرة هذه البرابى وكثرة ما بها من تماثيل وأصنام كما سبق أن أسلفنا ، وقد كان لهم رأى فى طريقة التحنيط التى عرفها قدماء المصريين كما أنهم أطلقوا على تمثالى ممنون بالجانب الغربى من مدينة

الأقصر » شامة وطامه » وفى اعتقادنا أن شامه وطامه قصة حب نسجها خيال أهل الأقصر فى ذلك الوقت حول هذين التمثالين وقعت بين شامه الذى هو المحبوب وطامه التى هي المحبوبة وان هذه الأصوات التى كانت تنبعث من جوفهما عند شروق الشمس تمثل التناجى بين المحبوبين كما انهم كانوا ينظرون الى البحيرة المقدسة بالكرنك على انها مصحه للعلاج من الامراض المستعصية لملوحة مائها ، ولنقرأ ما كتبه عبد الغفار بن نوح الاقصرى فى كتابه الوحيد فى هذا الصدد ، فنراه يقول : « وبالاقصر القديمة مكان يسمى أبو دويره اذا دخله انسان وحده يعتريه الخوف وهى عمارة الأوائل برابى وحجارة ، وفيه أماكن مظلمة وهو بعيد عن العمارة وبقرب الأقصر شامه وطامه من عمائر الجاهليه الأوائل وأهل البرابى وبها نواويس أموات وهم صحاح ، وقد رأيت منهم جملة وهم على هيئتهم وعظامهم بيض وأسنانهم وأظفارهم باقية وجلودهم على أجسادهم ولعلهم كانوا يداوونهم بأدوية كى لا تضمحل أجسادهم وبعضهم يربطونه جميعه وكذلك يفعلون بالطيور والغربان وغيرهم من الحيوانات كالقطط ويجعلون بعضهم فى قوالب من حجارة مملوءة عسلا نحلا لئلا يتغيروا لأن العسل لايتخلله الهواء والهواء يسرع الى فساد الأجساد ويقول فى موضع آخر (ان هناك أصواتا كانت تنبعث من جوف هذه الأصنام اعتقد الناس أن الشياطين انما تحدث هذه الأصوات فلعبت هذه الظاهرة بعقول الكثيرين منهم .

الهوى والحب والشباب فى مجتمع الأقصر

وهذه الظاهرة قديمة عرفها الانســـان منذ نشأته وعاشتها المجتمعات على اختلاف تطورها الحضـــارى وقد تحدث كثير من الفلاسفة الأولين والعلماء المسلمين وغيرهم عن الهوى والعشـــق والحب ، منهـــم من ذم الهوى وقبحه ورمى العاشقين والمحبين بالخبل والجنون ومنهم من تحدث عن هذه الظاهرة حديثـــا فلسفيا عميقا يدل على تأييـــده الصادق التام للحب والمحبين والعشق والعاشقين .

ويحدثنا تاريخ أدبنا العربى عن العديد من القصص فى الهوى والعشـــق والحب عرفهـــا مجتمعنا العـــربى فى مختلف عصوره فنقرأ مثـــلا عما وقع بين قيس بن الملوح وليلى العامرية وجميل بثينه وكثير عزه .

فهل عرف مجتمع الأقصر المحدود هذه الظاهرة فى العصر الاسلامى وهل ظهر فيه مولهون عاشقون يشكون

الصبابة وألم الفراق أو ينعمون مع من تخفق قلوبهم بحبهم ..

لقد كانت نظرة أهل الأقصر لهذه الظاهرة حتى عصر سلاطين المماليك نظرة ضيقة حتى انهم كانوا يصرون على أن هذه الأمور رجس من عمل الشيطان وانها عار وشنار وان الفتاة اذا خفق قلبها بالحب فهى فى هذه الحالة مارقة قد جلبت الخزى والعار لأهلها تستحق قتلها وسفك دمها وان الفتى أيضا أبله أحمق مجنون وظل الأمر كذلك حتى ظهر فى عصر المماليك شاب من الأقصر عاش ميعة صباه تحت وارف ظلال هذه المدينة ثم تثقف ثقافة واسعة حتى صار عالما وفقيها محدثا وأديبا وشاعرا أوتى الشجاعة والجرأة وفصل الخطاب ذلكم هو عبد الغفار ابن نوح الاقصرى الذى استطاع أن يحطم هذه النظرة السلبية حول الحب والهوى والعشق عند أهل بلدته فصاح قائلا :

أنا أفتى أن ترك الحب ذنب
آثم فى مذهبى من لا يحب
ذق على أمرى مرارات الهوى
فهو عذب وعذاب الحب عذب
كل قلب ليس فيه ساكن
صبوة عذرية ما ذاك قلب

وقد هفت قلوب العاشـــقين اليه وأخذت تطمئن نفوسهم لما يقول وقد عمل جاهدا على تحطيم فكرة العار التى كانت تســـيطر على عقول الكثيرين من أهل بلدته فقال فى ذلك :

الصادق الحب لا يخشى من العار
والعار فى الحب أن يخلو من العار
لا ستر فى الحب الا وهو منتهك،
والستر فيـه بأن يضحى به عار
عـلامة الحب لا تخفى على أحـــد
يغص بالماء أو يلتـذ بالنـــار

وقد أشار فى كتابه الوحيد فى سلوك أهل التوحيد عن المحبين والعاشقين الذين عاشوا فى مدينة الأقصر فى زمنه فهو يحدثنــا مثلا عن شخص يدعى شافع كان ولها عاشقا يدور فى الطرقات ويأوى الى المقابر وعن شخص آخر يدعى أســحق كان نصرانيــا وأسلم فى سبيل ذلك وكانت له أحوال غريبة وبكاء وسهر طويـل فســئل فى ذلك فقال كنت أعشق امرأة وكنت لا أنام من جراء ذلك وأتسـلق الحيطان ثم هو ـ أعنى عبـد الغفار بن نـوح الاقصرى ـ يشتم من ثنايا حديثه المتناثر فى كتابه الوحيد أن قلبه قد خفق بالحب وانه عاش تجربة عانى فيها الكثير من البلاء والصبر • فهو يقول :

شربت الهوى حلوا ومرا وان كان طعمه
أمر من الصبر المذاق العلقم

ثم انظر اليه رحمه الله وأثابه وقد هزه ألم الفراق يقول :

بقاء نفسى فى يوم النوى عجب
لأن موتى من بعض الذى يجب
وما بقيت روحى لست أملكها
وليس لى فى حياتى بعدهم أرب
رضاء قلبى أن يرضوا بسفك دمى
هم هم ان رضوا فى الحب أو سخطوا
والقرب والبعد ما شاءو فديتهم
هم الأحبة أن شطوا وان قربوا
وهم نهاية آمالى ومرتجعى
لهم آل وجدى وانتهى الطلب
كرر حديثهم يا سعد فى أذنى
فلست أنسى ولكن هزنى الطرب

المواسم والأعياد الدينية عند المسلمين

تختلف مظاهر الاحتفال بالأعياد الدينية فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى من قطر الى قطر ومن بلد الى بلد وتدخل فى كثير من هذه الاحتفالات تقاليد شعبية يتوارثها أبناء هذا القطر أو ذاك أو هذه المدينة أو تلك ٠

وفى صعيد مصر بصفة خاصة تظهر النقاوة الروحية فى الاحتفال بهذه المواسم والأعياد بصورة أكثر وضوحا عن سائر البلاد وذلك لأن أهل الصعيد يحرصون كل الحرص على التمسك باحياء تعاليم أهل السنة والسلف الصالح ويبتعدون كل البعد عن البدع والضلالات التى من شأنها أن تسىء الى الدين الحنيف ٠

ومن أبرز هذه الأعياد الدينية فى العالم الاسلامى عيد الفطر وعيد الأضحى وكان أول احتفال المسلمين بعيد الفطر فى العام الثانى للهجرة وفيه أيضا كان عيد الأضحى والسبب فى إتخاذهما ما روى عن النبى صلى الله عليه

وسلم انه قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون فيهما فقال ما هذان اليومان فقالوا كنا نلعب فيهما فى الجاهلية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الله عز وجل قد بدلكم خيرا منهما يوم الفطر ويوم الأضحى .

ومظاهر الاحتفال بهذين العيدين قد أوردهما ابن الحاج فى كتابه «المدخل» بشىء من التفصيل والوضوح وما زال معمولا بها حتى يومنا هذا فهو يقول فى عيد الفطر : فعقب ثبوت رؤية هلال شوال يعلن ذلك رسميا بعد صلاة العشاء فيطوف الناس بالشوارع يكبرون تكبيرات العيد ويبدأون فى الاحتفال بالاستعداد لاستقبال أول يوم فى شهر شوال الذى هو ابتداء أيام العيد الثلاثة فتعمر الفرحة قلوب الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وكذلك الأطفال والشبان بصفة خاصة فيستعدون لارتداء الجديد من الثياب فى يومه وينفق الأطفال والشبان ليلة العيد فى صقل الملابس أى كيها حتى تبدو فى أحسن مظهر أما النساء فيصنعن الكعك والشريك فى يوم الوقفة ويستيقظون مبكرين لأداء صلاة الفجر غالبا فى منازلهم ثم يتناولون افطارا خفيفا ويرتدون الجديد من الثياب ثم يتجهون الى المسجد لأداء سنة العيد وسماع الخطبة والبعض يذهب الى منزل الامام الذى سوف يصلى العيد فاذا ما اجتمعوا خرج عليهم الامام فيسرعون فى التكبير فى

صوت مرتفع حتى يصلوا قرب المحراب فتقام سنة العيد وبعد انقضاء صلاة العيد وسماعهم الخطبة يتصافحون مهنئين بعضهم بعضا ثم ينصرفون الى منازلهم وفى هذا اليوم تكثر الزيارات بين الأهل والأقارب والأصدقاء وتوصل الارحام وينفق الناس فيه عن سعة فيهب الآباء أبناءهم وذوى قرباهم قطعا من النقود تسمى « العيدية » فى بشر وسعادة ينفقونها على ملاذهم وما يدخل السرور على أنفسهم كاللعب فى الحدائق وركوب النيل والتلهى بمشاهدة السحرة وأصحاب الشبابات والدفوف الذين يجوبون الأسواق والشوارع فى هذا اليوم · ولا تختلف مظاهر الاحتفال بعيد الفطر عنها فى عيد الأضحى سوى أن الناس عقب صلاة عيد الأضحى ينحرون الأضحية وقد كان أهل الصعيد عموما يحرص القادرون منهم على الفداء والأضحية ويوزعون لحومها على الفقراء والمحتاجين ويبدأون بأقاربهم ومن يعولون وقد جرت العادة أن يتناول أصحاب الأضحية طعام افطارهم فى يوم العيد على كبد هذه الأضحية عملا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم · ولقد كانت زيارة القبور فى هذين العيدين تقليدا معمولا به فى أغلب مدن الديار المصرية فى ذلك الوقت وما زال ممتدا حتى يومنا هذا وقد اعتقد الناس أن زيارة الموتى فى هذين العيدين من باب البر بهم وانه من كثرة التفجع عليهم فقدهم فى هذه الأيام وكانوا يذهبون الى أبعد من

هذا فهم يقيمون المآتم عليهم ويكثرون النواح ويتبادل الرجال عبارة تقليدية تحمل معنى الوحشة على فقد هؤلاء الأقرباء وهى « أوحشكم من غاب » وكل هذه عادات مرذولة لم يبحها الشرع وقد نهى عنها الفقيه ابن الحاج وسفه مرتكبيها .

التقاليد والمعتقدات والأعياد الدينية عند النصارى

للنصارى تقاليدهم وعاداتهم التى أمر بها الدين المسيحى وحرص القديسون كل الحرص على تطبيقها والعمل بها ، كما أنه لا ينبغى أن يغيب عن ذهننا أن من بين هذه العادات والتقاليد ما هو امتداد للتقاليد والعادات المصرية القديمة بالاضافة الى أن النصارى قد تأثروا أيضا بالتقاليد الاسلامية وذلك منذ الفتح العربى لمصر وأن المسلمين بدأوا يأخذون من التقاليد والعادات المسيحية الشىء الذى أنست نفوسهم اليه ووضعوه موضع السنن ، فهم مثلا قد شاركوهم فى الاحتفال بالعديد من أعيادهم الدينية والتقطوا كثيرا من تقاليدهم فى حياتهم الاجتماعية. ولعل فى ذلك أبلغ دليل على مدى الترابط بين المسلمين والنصارى · ونحن اذا ما وقفنا وقفة سريعة أمام شىء من هذه العادات والتقاليد عند النصارى نجد أنها لا تختلف كثيرا عنها عند المسلمين · فمثلا الزواج وتكوين الأسرة يمر فى الاطار الدينى الذى رسمه الاسلام والمسيحية

الا أن للنصرانى واحدة وللمسلم مثنى وثلاث ورباع ، كما أن النصرانى لا يعرف الطلاق الا فى أمرين الزنا والمرض فى الوقت الذى فيه قد أباح الاسلام الطلاق للمسلمين ..
ونحن اذا ما تتبعنا النصارى فى بعض من معتقداتهم وتقاليدهم نجد أنهم يتمسكون بتعاليم الدين المسيحى تمسكا تاما فهم يذهبون مثلا الى تعميد أبنائهم اعتقادا منهم أن الابن اذا مات دون تعميد يكون أعمى فى الحياة الأخرى ويتحمل أبواه وزر ذلك فبعد أن يبلغ المولود الذكر ثمانين يوما والانثى أربعين يوما يتعين على الوالد أن يأخذ مولوده الى أحد القسيسين ليتولى الاشراف على تعميده وذلك بأن يغمسه ثلاثا فى الماء المضاف اليه الزيت المقدس ثم يؤدى عليه صلاة بالقبطية ، كما أن النصارى لا يعتقدون كثيرا بعملية الختان اذ كانوا ينظرون اليها على انها مجرد عادة يوصى بها لا طقس دينى يؤاخذ عليه من لا يقوم بأدائه .

وفى مجال تربيتهم لأولادهم وتثقيفهم تراهم يحرصون كل الحرص على ذلك فهم يدفعون بهم فى سن مبكرة الى المدارس كى يتعلموا مبادىء القراءة والكتابة ويأخذون بقدر من اللغة القبطية ويقرأون مزامير داود ثم الأناجيل ورسائل الرسل وعلوم الحساب والطبيعيات كذلك نراهم بارعين فى شئون الجباية والصرافة مما دفع الكثير من الأمراء والسلاطين فى العصر الاسلامى ، الى أن يعهدوا اليهم بهذه الأعمال دون سواهم وذلك لمقدرتهم وأمانتهم واخلاصهم وتفانيهم فى هذه الأمور ولقد كان

الوالد اذا ما آنس فى ابنه استعدادا دينيا دفع به الى المدارس الدينية كى يدرس علوم اللاهوت ثم ينخرط بعد ذلك فى سلك رجال الدين فيبدأ من سن الثلاثين كى يصبح شماسا ثم قسيسا ثم راهبا ويشترط فى الراهب أن يكون قد أخضع لتجربة طويلة فى الصبر والتقوى ونذر بالعزوبية قبل دخول السلك الرهبانى ثم يختار الراهب بعد ذلك ليصبح أسقفا فمطرانا فبطريركا وغالبا ما تكون هذه الوظائف الدينية وراثية أى أنها تنحسر فى بيوت معينة .

ويعمل النصارى بالتقويم القبطى الذى يعتبر امتدادا للتقويم المصرى القديم وهو اثنا عشر شهرا تبدأ بشهر توت ـ بابه ـ هاتور ـ كيهك ـ طوبه ـ أمشير ـ برمهات ـ برموده ـ بشنس ـ بؤنه ـ ابيب ـ مسرى ، ولهذا التقويم صلاحيته وفائدته الجليلة فى شئون الزراعة والحصاد وتحديد الفصول والأعياد والمواسم الدينية .

واذا ما انتقلنا للحديث عن أعياد النصارى ومواسمهم الدينية نجد أنفسنا أمام حشد عظيم من هذه الأعياد والمواسم على امتداد السنة بأكملها مما يصعب معه الحصر أو التعداد وسنكتفى بالحديث هنا عن أهمها وأشهرها . ففى أول شهر توت مع استهلال العام حسب التقويم القبطى يقع عيد النيروز وهو رأس السنة القبطية وكلمة النيروز هذه كلمة فارسية الأصل تتكون من مقطعين

نو بمعنى جديد وروز بمعنى يوم وعلى هذا الأساس يكون معناها اليوم الجديد ولقد كانت الدولة فى العصر الاسلامى تحتفل بهـذا العيد احتفالا رسـميا فتعطـل المدارس والأسواق ، ويقع عيد الميلاد أى ميلاد المسيح عليه السلام فى التاسع والعشرين من شـهر كيهك الموافق السـابع والعشرين من ديسـمبر من التقويم الميـلادى وفى شهر طوبه يحتفل النصارى بعيد الغطاس ويقولون انه فى هذا اليوم قد اغتسلت العذراء البتول مريم من النفاس فاتخذ النصارى من ذلك سـنة فى كونهم يغتسلون فى هذه الليلة صغيرهم وكبيرهم حتى الرضـيع منهـم ويشاركهم المسـلمون فى هذا العيد فهـم يدخلون السرور على أولادهم بأشياء ينفقونها فيه فأطفال المسلمين وشبابهـم يزفون فيه عيدان القصب وعليها الشموع الموقدة والفاكهة ويخـرجون فى الطـرقات والدروب يرددون الأغـانى والمواويـل وأما عن **عيـد القيامة المجيـد** فيقع ما بين (٢٥ مارس الى ٢٥ أبريل من التقويم الميلادى) ويسمى عند اليهود بعيد الفصـح وهو بالعبرية « الاختبار » وهو ذكرى قيام المسيح من بين الأموات فى العقيدة المسيحية أى ابتـداء الدعوة التى أمر بهـا السيد المسـيح من الله سبحانه وتعالى ويسبقه الصوم الكبير الذى يستمر أربعين يوما ويرتبط هذا العيد بأعياد ثانوية منها **عيد الشعانين** ويقع فى أوائل الاسبوع الأخير من الصـوم الذى يسبق هذا العيد ، والشـعانين هذه أيضـا كلمة عبرية بمعنى

الخلاص ويعرف أيضا بعيد الزيتون ويطلق العامة عليه أحد السعف أو الخوص وذلك لأن الناس فى القدس خرجوا يستقبلون السيد المسيح وهم يمسكون بسعف النخيل ثم يليه **خميس العهد** وفيه بدأ السيد المسيح يودع تلامذته ويأخذ عليهم العهد ويسميه عامة النصارى **خميس العدس** وهو الطعام المفضل لدى السيد المسيح وتلامذته ثم **جمعة الآلام** أو **الجمعة الحزينة** وهى الجمعة التى تم فيها صلب المسيح عليه السلام فى العقيدة المسيحية ثم **سبت النور** وقد سمى كذلك لأنه فى هذا اليوم بالذات انبثق نور عظيم من القبر المقدس بأورشليم ومن مظاهر الاحتفال بهذا العيد أن النصارى يقومون بتلوين البيض فيه بالألوان ويشاركهم فى ذلك المسلمون ومنهم أى النصارى من يجمع فى هذا اليوم أوراق شجر الريحان وينقعونها فى اناء به ماء ثم يغتسلون به ويأخذون ما جمع من غسلهم ويلقونه فى الطريق ويزعمون أن ذلك يذهب عنهم الأمراض والأسقام والكسل والنظرة والسحر ٠

المواسم والأعياد القومية والفنون الشعبية عند المسلمين والنصارى

الأعياد والمواسم القومية هى مهرجانات شعبية يشترك فيها الناس على تباين دياناتهم واختلاف عقائدهم فيظهرون الشعور بالفرح والسرور بمختلف الأساليب بهذا العيد وذاك الموسم وهذه الأعياد والمواسم كثيرة متعددة منها ما هو على مستوى الدولة بأسرها ومنها ما هو على مستوى المدينة أو القرية ولقد سجل تاريخ مصر منذ أقدم العصور مواقف بطولية ومناسبات قومية ما زال يجرى بها الاحتفال حتى يومنا هذا .

فنقرأ مثلا عن مدينة من المدن قام أبناؤها بدور بطولى فى قمع فتنة أو القيام بثورة ضد ظلم أو طغيان أو الاستبسال والاستشهاد فى وجه دخيل غاصب يريد أن ينال بالبلاد شرا ومن ثم يصبح يوم الانتصار فى هذه المواقف يوما خالدا وعيدا قوميا فى تاريخ هذه الأمة أو هذه المدينة أو هذه القرية أو أننا من جانب آخر نسمع أن

مدينة من المدن أو قرية من القرى تقيم احتفالا سنويا لتخليد ذكرى عظيم من عظمائها كان له تاريخ مجيد فى ميدان السياسة أو الدين ففى هذه الحالة تبالغ هذه المدينة أو القرية فى مظاهر الاحتفال بهذه المناسبة التى تصبح على مر الأيام عيدا قوميا ، ويظهر هذا الجانب بوضوح فى موالد الأولياء والقديسين والشهداء التى لا تكاد تخلو منها مدينة من مدن الديار المصرية وقد اعتنى الحكام الفاطميون عناية تامة بالاحتفال بمثل هذه الأعياد والمواسم وتبعهم فى ذلك الأيوبيون والمماليك .

ولقد عرف صعيد مصر هذا اللون من الاحتفال بموالد الأولياء والقديسين وبالغ أهله مبالغة تامة فى احياء هذه الذكريات التى تعبر عن مدى احترامهم وتقديسهم لأصحابها .

ففى مدينة الأقصر مثلا يعتبر مولد العارف بالله سيدى أبى الحجاج الأقصرى والقديس الشهيد مارجرجس من أهم الأعياد والمواسم التى تحتفل بها هذه المدينة بمختلف هيئاتها وطوائفها .

فمولد أبى الحجاج الأقصرى يعتبر من أهم الأعياد القومية التى يحتفل بها الأقصر فى النصف الأول من شهر شعبان من كل عام وذلك تكريما لهذا الولى الصالح الذى ترك فى مجتمع الأقصر منذ القرن السابع الهجرى أثرا واضحا ملموسا فى نشر تعاليم الدين الاسلامى

الحنيف والدعوة الى الفضيلة ومكارم الاخـــلاق ومظاهر الاحتفال بهذا المولد أو العيد كثيرة متعددة منها أن جميع البيوت فى هذه المدينة تبالغ فى اكرام ضيوف هذا المولد الذين يفدون للمشاركة فى هذا الاحتفال من مختلف المدن والقرى والدساكر المحيطة بالأقصر فيقدمون لهم أنواعا شتى من الاطعمة والمأكولات التى من أشهرها طعام اتفق أهل الأقصر على تسميته بالكباب وهو خليط من اللحم الأحمر والبصل والقمح المدشوش يقطع فى أشكال مكببة قبل طهيه يقولون ان الشيخ الأقصرى كان يقدمه لتلاميذه ومريديه وقد ظلت هذه العادة حتى يومنا هذا وتظهر بوضوح فى مناسبة الاحتفال بذكرى مولد هـــذا الولى وما زال هـــذا الطعام معروفا مشهورا لدى أهل العراق وان اختلفوا فى تسميته فهم يطلقون عليه « الكبيبة » وهذا يدلنا دلالة قاطعة على أن أبا الحجاج الأقصرى العراقى النشأة والمولد استجلب هذا الصنف من الطعام معه من العراق وشاع وانتشر فى صعيد مصر فى حياته وبعد وفاته أيضا ٠

وثمة ظاهرة أخـرى تأخذ طريقها فى وضوح وجلاء فى يوم هذا الاحتفال تلك المركب التى يجرها الناس بين مظاهر الفرح والسرور وقد حملت بالصبية الذين يمسكون فى أيديهم الدف والرق وهم ينشـدون الأناشيد ويغنون الأغانى فى مديح أبى الحجاج ولقد قال كثير من المؤرخين عن هذه المركب انها امتـداد لمركب الاله آمون التى كانت معروفة لدى قدماء المصريين والتى كانت تخرج من معبد

الأقصر فى احتفال دينى مهيب وتتهادى على صفحة النيل بين المباخر والصلوات والأدعية حتى تصل الى مرسى طريق الكباش وتحمل الى قدس الأقداس بمعبد الكرنك حيث تقام المراسم الدينية بهذا الاحتفال وأغلب الظن أن هذا الأمر بعيد الاحتمال لتقادم العهد بين التاريخ المصرى القديم والتاريخ العربى وما هذه المركب الا مركب أبى الحجاج الشخصية التى كان يستخدمها فى سياحاته الى المدن والقرى التى تقع بالجانب الغربى من مدينة الأقصر للوعظ والتذكير والدعوة الى الله ٠

ويعتبر مولد أبى الحجاج الأقصرى من جانب آخر بوتقة تنصهر فيها وتتفاعل أحاسيس ومشاعر ووجدانات أهل الأقصر فهو سوق اقتصادى رائج ينتظر الناس مقدمه كل عام فتروج فيه السلع المختلفة ويختزن الناس فيه القمح قبل موعد قدومه ويبالغون فى تربية الماشية والأغنام التى تنحر فى يوم هذا الاحتفال وينفقون فيه عن سعة بنفس مفعمة بالرضى والاطمئنان وتشيع فى جنبات هذه المناسبة التى تعيشها الأقصر يوما فى كل عام الروحانية بأجل وأصدق معانيها هاتفة بعميق ايمان أهل هذه المدينة ومدى تقديسهم واحترامهم لهذا الولى ٠ وتشارك فى هذا الاحتفال الفنون الشعبية المختلفة فتتألق الرقصات التقليدية البريئة كل البراءة من المجون والخلاعة وكذا المزمار البلدى بألحانه الشجية وسباق الخيل والتحطيب

وتدور الأسنة بالأغانى الشعبية والمواويل فى مديح أولياء الله وعارفى فضله ..

وبعد أن ينتهى أهل الأقصر فى يوم الرابع عشر من شهر شعبان باحتفالهم بمولد أبى الحجاج نراهم فى ليلة النصف من شعبان يتجمعون حول ضريح هذا الولى فيتجه الرجال لأداء فريضة المغرب ثم يرددون دعاء ليلة النصف من شعبان على حين يطوف النساء والعذارى بضريح أبى الحجاج ويقف الشبان فى الطرقات المؤدية الى هذا الضريح والكل يدعو ويتوسل وترتفع الأصوات بالأغانى والمواويل والزغاريد من كل جانب ويختلط الرجال بالنساء ويعتبرون ذلك موسما وعيدا مستقلا يقولون انه فى هذه الليلة قد عرج بسيدى أبى الحجاج الى السماء وتلقى من ربه الأسماء لكن المؤرخ الادفوى ينفى هذا القول ويبرىء هذا الولى الصالح من هذه الأباطيل والترهات فيقول فى طالعه السعيد : لكن جهال اتباعه قد أطنبوا فى حقه ورفعوه فوق قدره وظنوا أن له معرجا ودعوا الناس الى سماعه فجاءوا أفواجا وادعوا أنه فى ليلة النصف من شهر شعبان عرج به الى السماء فتلقى من ربه الاسماء واتخذوه فى الصعيد فى كل سنة كالعيد تأتى اليه الخلائق من العوالى ويبذل فيه العزيز الغالى ويحضره أصحاب الشنوف والشبابات والدفوف وتختلط الرجال والنسوان ويجتمع فيه الشبان والمروان وهى من الأمور الفظيعة والبدع الشنيعة والشيخ بعيد عنها محاشى منها

وله من المناقب ما يكذبه وما ينطق المرء فيه بملئ فيه وقد انقرضت هذه الظاهرة ولم يعد لها ثمة أثر اطلاقا ٠

مولد القديس الشهيد مارى جرجس :

لقد اعتاد النصارى أيضا أن يحتفلوا فى صيف كل عام فى أغلب مدن الديار المصرية باحيـــاء ذكرى مولد القديس الشهيد مارى جرجس لما لهذا القديس من فضل عميم فى الدفاع عن العقيدة المسيحية ضــد طغيان بعض المارقين والطغاة الذين عاشوا فى أوائل عصورها ويظهر نصارى الأقصر بصفة خاصة عميق فرحهم وسرورهم بهذه المناسبة التى تعتبر من أهم وأعظم أعيادهم القوميــة فهم فى صيف كل عام يتجمعون بناحيــة فى غرب الأقصر من مختلف القرى والدساكر يقدمون النذور ويذبحون الذبائح ويوزعون الصدقات على الفقراء والمســاكين زلفى وتبركا بهذا القديس الشهيد الذى كانوا يعتقدون فى كراماته ومعجزاته الخارقة فكثيرا ما كانوا يتوسمون فيه الشفاء من أمراض النفس والبدن المستعصية ٠ بقى لنــا أن نعرف من هو الشــهيد مارى جرجس ؟ تقول دوائر المعــارف والموسوعات العربية والافرنجية أن هذا القديس قد نشأ فى آسيا الصغرى فى القرن الثالث الميلادى فى عهد القيصر دقلديانوس الذى عمل فى مستهل حياته ضابطا فى جيشه وقد كان معاصرا لفتية أهل الكهف الذين أشــار اليهــم القرآن الكريم فى سورة الكهف ثم سرعان ما انفصل عن

خدمة هذا القيصر حينما بدأ يضطهد المسيحيين وأخذ فى محاربته واستبسل فى الدفاع عن العقيدة المسيحية فكان أن أوذى وعذب حتى استشهد ودفن باللد فى فلسطين ثم نقلت رفاته بعد ذلك الى مصر فى عهد الأنبا غبريال الثانى ودفن بمصر القديمة وقد شيد له أحد الأقباط الأثرياء كنيسة فى القرن السابع الميلادى أى قبل الفتح العربى لمصر تحمل اسمه تعتبر من أروع الكنائس فى مصر قاطبة وقد كان يعرف فى حياته بجوار جيوس الكتادونى أو القديس جورج ٠

المآتم والأحزان

لقد كان مما جرى به التقليد فى العصر الاسلامى بين أهل مدينة الأقصر حينما يرزءون فى فقد عزيز لديهم أن يقيموا عليه الحداد أربعين يوما ٠ فهم أولا يحتفلون بتشييع جثمانه فتسير الجنازة فى موكب دينى يظهر فيه الخشوع لجلال الله سبحانه وتعالى « الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا » ويختلف مظهر تشييع الجنازة باختلاف قدر المتوفى ومكانة عائلته ووزنها فى مجتمعه الذى عاش فيه ، فاذا كان المتوفى مثلا عالما جليل القدر أو شيخا ورعا له جلاله وهيبته كان تشييع جثمانه يتناسب مع هذا القدر وهذه المكانة ففى هذه الحالة يطوف الناعى بالمدينة ويصعد المؤذنون المآذن مكبرين وفى كثير من الأحيان يظهر النصارى مجاملاتهم لاخوانهم المسلمين فتدق

أجراس الكنائس لحظة تشييع جثمان هذا الفقيد ٠٠ كل هذه كانت وسائل أعلام لنبأ وفاة هذا العالم الجليل أو ذاك الشيخ الورع ٠ واذا كان المتوفى من أصحاب الجاه والثراء فانهم ينحرون تحت نعشه حين يخرج من منزله الذبائح وتوزع على الفقراء والمساكين ٠ ويتجه موكب الجنازة من منزل الفقيد الى حيث يصلى عليه فى المسجد ثم بعد ذلك الى أماكن الدفن ٠ وبعد أن تتم مراسم الدفن يتقبل أهل الفقيد العزاء من المشيعين والمجاملين ومن الأصدقاء والجيران والمحبين ثم يرجعون الى منزلهم أعنى أهل الفقيد - ويستعدون لما يسمونه « الفرشة » وغالبا ما تكون فى الدواوين أو الساحات المعدة لمثل هذه المناسبات والتى تتقاطر عليهم جموع المواسين والمعزين وفى المساء يستمع الناس الى تلاوة من آى الذكر الحكيم وتستمر هذه العادة المتوارثة ثلاثة أيام وفى بعض الأحيان تمتد من سبعة أيام الى خمسة عشر يوما حسب قدر المتوفى ومكانة عائلته ويظهر الجيران صادق شعورهم وعميق مجاملاتهم لأهل المتوفى بأن يقدموا لهم الطعام فى الافطار والغداء والعشاء ٠ وبعد مرور الأربعين على حادث الوفاة يحتفل احتفالا دينيا بتلاوة آى الذكر الحكيم وتوزيع الصدقات على الفقراء والمساكين ٠ ويرتدى أهل المتوفى من رجال ونساء ملابس الحداد طوال أربعين يوما ومنهم من يبالغ فى ذلك فيستمر حتى تمام الحول ولا يحلق الرجال رءوسهم فترة طويلة ولا يقربون أهليهم الا بعد تمام الأربعين فى

الأغلب الأعم ولكن ما هو دور المرأة فى حالة فقدها لعزيز لديها ؟

ما من شك فى أن المرأة عاطفية بطبيعتها . لذلك فاننـا نلمس عمق شـعورها وصادق عواطفها فى حالة فقدها لعزيز لديها بصورة أكثر وضوحا عنها عند الرجل وذلك ما نلمسه فيما تؤديه من بكائيات جنائزية تستمر حتى تمام الأربعين .

فما هى البكائيات الجنائزية . ؟

البكائيات الجنائزية هى فن أصـيل من فنون أدبنا الشعبى تلعب المرأة فيه دورا ايجابيا فعالا ما زال متوارثا حتى يومنا هذا ، وهى لون من البكاء يظهـــر فيــه عمق الشعور بالحزن على العائل أو الشقيق أو الحبيب .

ويقول أغلب الدارسـين للأدب الشعبى أن أول من عـرف البكائيات الجنـــائزية هم قدماء المصريين ثم أخذها عنهم النصارى وتأثر بها المسلمون بعد ذلك ، وقد لاحظ الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر أن الأقباط النصارى كانوا يبالغون فى اظهار شـعور الحزن أكثر من المسلمين وذلك ما هو ملموس فى سلوك نسائهن حين يفقدن عزيزا لديهن فانهن يجلبن النـدابات ويلطمن الخدود ويشققن الجيوب ويواكبن جنائزهن الى الكنيسة حيث تقام الطقوس الدينية المتبعة فى ذلك ومنها الى حيث الدفن يحملن معهن ما كان

يمتلكه فتيدهن من فاخر الثياب كى يدفن معه كما كان يفعل قدماء المصريين الذين حفظ لنا التاريخ مشاهد كثيرة من مواكبهـم الجنائزية على أعمدة وجـــدران معبدى الكرنك والأقصر ٠

وقد ظهر هذا الفن الشعبى عميقا أصـيلا فى مدينة الأقصر دون غيرها من المدن وذلك لأن هذه المدينـــة ظلت فترة طويلة عاصمة لقدماء المصريين ، ثم جاء بعدهم الأقباط النصـــارى الذين يعتبرون امتدادا لهم فى أغلب عاداتهم وتقاليـدهم ٠ وقد كان من العـادات المتبعة فى مواكب النصارى الجنائزية أن يحمل النعش على عربة يتقدمه رجال الدين ومن خلفهم كبـــار المشيعين وأقارب الفقيد ومن يواسونهم من الأصدقاء والجيران والمحبين فى هذا الخطب وفى مؤخرة الموكب تسير نساؤهن فى حـالة من الحزن والأسى تقطـع نيـاط القلوب حفـــاة رؤوســـهن عارية وشعورهن مسدلة على أكتافهن وجلابيبهن ممزقة ووجوههن ملطخـة بصباغ نيلى اللون وغالبا ما يربطن مئزرا حـول خصورهن أو يشددن منديلا على أعناقهن أو يمسكن بعصاة فى أيديهن ويتمايلن يمنة ويسرة فى حركات عصـــبية وقد رفعت النادبة بينهن ممســـكة بيدها رق تقرع عليه فى ايقاعات رتيبة وهى تصيح مرددة احدى البكائيات الجنائزية ومن خلفها الجميع يتابعنها فى ذلك ٠

وقد عرفت المرأة الأقصرية المسلمة هذا اللون من الحزن والبكاء على الميت وحاكت فيه المسيحية الا أنها لم

تبلغ مبلغها من عمق الشعور فى الحزن وسلوكها فى جلب الندابات ولطم الخدود وشق الجيوب وما الى ذلك من هذه العادات التى حذر الاسلام من اتباعها تحذيرا تاما • فالمرأة المسلمة فى حالة فقدها لعزيز لديها تطلق صرخة عالية مروعة مصحوبة بكلمة (بوه) وهى اختصار لكلمة (هابوه) الفرعونية التى تؤدى معنى يا الهى وعلى أثر هذه الصرخة المروعة يهرع اليها جيرانها وأقاربها متجهين ناحية منزلها الذى أطلقت منه هذه الصرخة ليشاركوا فى هذا الخطب • وغالبا ما تلتزم المرأة المسلمة الحكمة والتعقل فى مثل هذه الحالة مهما كانت جسامة الخطب فهى لا تستخدم النادبة ولا تشق الجيوب ، بل تكتفى فى أغلب الأحيان بشد منديل على عنقها وتدور حول نفسها مرددة ما تحفظه من بكائيات تتناسب ومقام فقيدها هذا ويقبل عليها أقاربها وجيرانها يعانقنها صائحات فوق رأسها معبرات لها عن صادق شعورهن وعميق مشاركتهن لها فى أمرها هذا ثم هى لا تواكب فقيدها الى المسجد أو المدفن كما تفعل المسيحية ، بل تكتفى بالسير وراءه فى حدود منطقتها التى تقيم فيها •

ويقول ابن نوح الأقصرى ان من عادة النساء أن يجعلن ستارة فى الطريق عند بيت الميت ويحجبون من هنا ومن هناك لتفسح لهن الشارع ويصرخن على ميتهن فى الشارع من خارج المنزل فاذا كان وقت المغرب دخلن الى بيوتهن •

والبكائيات الجنائزية تلائم كلماتها وضع الميت الاجتماعى وسنه وجنسه ذكرا أم أنثى ، فما يقال للوجيه لا يؤدى للفقير . ما يقال للعالم الفقيه والشيخ الورع الذى قضى حياته فى المساجد راكعا ساجدا وعلى المنابر واعظا وخطيبا لا يقال لذلك الذى قضى حياته ساعيا فى طلب الدنيا ، وما يندب به الموظف غير الذى يندب به الفلاح ، والمرأة لها بكائياتها والفتاة والطفل والعروس كذلك ، والبكائيات تعنى بحادث الوفاة الشاذ فاذا لقى الانسان مصرعه فجأة أو مات غريقا أو محروقا أو غريبا كان موضع الندب والتعديد على موته ذلك الحادث الفاجع . وفى تراثنا الشعبى كثير من هذه البكائيات التى تعطينا صورة صادقة لما سبق أن سقناه تتوارثها المرأة الأقصرية منذ أجيال مضت ، وهى تدور على لسانها حتى يومنا هذا ، وقد سجل العالم الأثرى الفرنسى ماسبيرو حينما كان يعمل مفتشا لمنطقة آثار الأقصر فى القرن التاسع عشر الميلادى جانبا كبيرا من هذه البكائيات فى كتاب له بعنوان :

Chansens Pepul Recuells dans le Haut Egypte

ولنقرأ بعض أمثلة من هذه البكائيات : تقول احدى البكائيات :

مال المصلى اليوم ما صلى .

بريقة انكسر ولا استخار الله .

مال المصلى اليوم ما جانى .

ماليت له الابريق النهارده بالعانى ٠
طريح الجوامع تبكى عليه وتنوح ٠
تبكى على من كان بيجى ويروح ٠

وواضح من ثنايا هذه البكائية أنها تبكى رجلا تقيا ورعا يؤدى الصلاة فى أوقاتها عرفته الجوامع من كثرة تردده عليها فهى تنوح لفقده وتتألم لفراقه ٠

وتذرف المرأة دموعها ساخنة خلال ترديدها للبكائيات فى حالة فقدها لعائلها ورب أسرتها أو لفقد وحيدها الشاب أو فى حالة الموت دون خلف أو فى الحوادث الشاذة كالغرق والغربة والحريق ٠ ففى حالة فقد عميد العائلة ورب الأسرة نسمع ترديدا لهذه البكائية التى تقول :

داركم وسيعة وبابها كويس ٠
يا ميت ندامة صبحت بلا ريس ٠
داركم وسيعة وبابها عالى ٠
يا ميت ندامة صبحت بلا صارى ٠

فقد وصفت هذه البكائيات رب الأسرة بالريس والصارى الذى بموته أصبحت الدار بلا ريس ولا صارى٠

كما انه فى حالة الموت دون خلف تدور على الألسنة مثل هذه البكائيات التي تقول :

مال الولية نعشها مايل ٠
ملهاش ولد بين الرجال شايل ٠
مال الولية نعشها بيميل ٠
ملهاش ولد بين الرجال يشيل ٠

فهذه البكائية تندب امرأة ماتت دون أن تنجب ولدا يحمل نعشها بين الناس ويتقبل فيها العزاء ٠

وتتأثر المرأة عموما بحادث وفاة الغريب فتجود بالدموع عليه ولسانها يردد :

يا شيخ البلد يا صاحب الخيمة ٠
طلع حريمك يدوا الغريب ليلة ٠
يا شيخ البلد يا صاحب الديوان ٠
طلع حريمك يدوا الغريب نهار ٠

فواضح أن هذه البكائية تأمر شيخ البلد أن يأذن لأهل بيته فى المشاركة فى وفاة هذا الغريب ٠

ولقد جرت عادة المرأة انها لا تربط البكائية فى كثير من الأحيان بحادث الوفاة فحسب ، بل انها كانت حينما تحس أن عائلها أو ابنها أو شقيقها فى حالة مرض أصبح ميئوسا من شفائه ، نراها فى هذه الحالة تدندن

بجوار فراشه وقد وضعت يدها على خدها تجهش بالبكاء مرددة :

ياما جـرالى عليك يا شـــــاكى

لما رأيتك من دونهـــم باكى

ياما جـــرالى عليك يا عيان

لما رأيتـك على الفراش غمـــران

ياما جرالى عليك يا قلبى

لـما رأيتـــك عـلى التراب مرمى

كما انهـــا كانت حينما تغلب على أمـرها أو تخلو بنفسها ترتب منزلها أو تكنســـه أو ترتق ثيابها ، نراها فى كل ذلك تتخذ من البكائيات عزاء وسلوى بالاضافة الى أنهـــا حينما كانت تســـمع بأن شابا من شباب جيرانها سيزف الليلة الى عروسه وتقام له الأفراح تتذكر ابنها أو أخاها الذى افتقدته فى مثل سن هذا الشاب الذى يحتفل جيرانها بزفافه فتذرف الدمع فى هذه الحالة ساخنا وهى تردد احدى البكائيات التى تتناسب وهذا الموقف ·

ومن المتبع فى البكائيـــات الجنائزية هذه أن التى تبدأ بها فى الجنائز عادة امرأة يطلقون عليها (البداية) بفتح الباء وتشـــديد الدال أى التى تبـدأ البكاء وهى

تحفظ الكثير من هذه البكائيات فى مختلف مناسباتها ويردد النساء وراءها ما تقول ٠

وتبدأ البكائية بنغم طويل ويكون صوت البداية هو الصوت الواضح المميز ، وفى أثناء البكائية يسمع صوت أقرب الأقربين الى المتوفى يحمل أنات وزفرات وفى أغلب الأحيان يصيح هؤلاء الأقارب بعبارات وجمل تحمل معنى الحسرة والألم على الفقيد كأن نســمع مثلا (يا سبعى) (يا جملى) (يا قليــل العيبة) وما الى ذلك من هذه العبارات التى يفهم منها أنها صفات كان يتحلى بها المتوفى فى حياته ، ثم تنتهى البكائية بنغم قصير سريع ويستمر أهل الميت يقيمون هذه البكائيات صباح كل يوم على مدى أربعين يوما كاملة من وفاة ميتهم ٠

الحركة العلمية فى مدينة الأقصر في هذه الفترة

لم نلمس أن هناك نشاطا علميا ملحوظا عاشته هذه المدينة منذ الفتح العربى لمصر حتى نهاية الدولة الفاطمية وذلك، لأن مجتمع هذه المدينة لم تكن معالمه قد تبلورت بعد الا انه لا ينبغى أن ينكر ذلك التقدم العلمى الذى كان يتمركز فى يد نصارى الأقصر الذين كانوا على علم ودراية واسعة بعلوم الطب واللاهوت والهندسة والحساب التى أخذها أجدادهم الاول عن قدماء اليونان وأورثوها أولادهم وأحفادهم من بعدهم وهذه العلوم مع الأسف لم تكن فى متناول أهل الأقصر ، بل انها لم تكن أيضا فى متناول النصارى على وجه العموم ، بل كانت وقفا على هؤلاء الذين يودون فقط أن يصبحوا من رجال الدين المسيحى .

وفى عصر الدولة الفاطمية كان الاتجاه السائد فى مصر هو ترسيخ تعاليم المذهب الشيعى الذى نادى به

الفاطميون والذى يقول فى اختصار أن عليا رضى الله عنه هو الخليفة الشرعى للمسلمين بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن أبا بكر مغتصب للخلافة وأن الخليفة أو الامام معصــوم من الخطأ وانه يضر وينفع الى كثــير من الآراء التى بدأ كثير ممن يسمون بالدعاة يتغلغلون بهــا فى كل بلد ومجتمع ويقيمون المصاطب والزوايا والتكايا ليعقــدوا فيها حلقــات الوعظ والدرس يروجون فيهــا للعقيدة الفاطميــة ويدعون لها ويناهضــون أصــــحاب المذاهب والطرق الأخرى ، وحينما قامت الدولة الأيوبية كان جــل اهتمام ســــلاطينها هو تقويض دعائم المذهب الشيعى والقضاء على العقيدة الفاطمية والعمــل على احياء تعاليم مذهب أهل السنة فأنشــأوا لذلك العــديد من المدارس وقامت حلقــــات الوعظ والدرس وأجزلوا فى العطاء للعلماء والفقهاء ورجال الصــوفية ، ولقد شــهد الصعيد بمختلف مدنه وبصفة خاصة مدينة اسنا وأسفون وأرمنت حملة واسـعة النطاق ضــد الشيعة والمتشيعين الذين كانوا قد لاذوا بهــذه المدن فى أعقــاب الدولة الفاطمية فتعددت لذلك المدارس فى هذه المدن وقام العلماء والفقهاء ورجال الصــوفية فى الصعيد بالوعظ والدرس وتبصــير الناس بتعاليم أهــل السنة وتطهير عقولهم من رواسب المذهب الشيعى .

لكن الأمــر بالنسبة لمدينـــة الأقصر يختلف كل

الاختلاف . ففى الوقت الذى فيه قد تأثرت أغلب مدن الصعيد بمذهب الشيعة كأسفون التى تقع تحت الأقصر بمسافة يسيرة والتى كانت متنفسا صحيا لآراء الشيعة ومعتقداتهم حتى ان الادفوى قد وصفها فى طالعه السعيد بأنها بلدة معروفة بالتشيع البشع .

وأرمنت التى تقع على الشاطئ الغربى للنيل بالقرب من الأقصر قد تسلط عليها أيضا الكثير من دعاة الشيعة واسنا كذلك كان بها هذا المذهب فاشيا . لم نلمس رغم كل هـذا النشاط الملحوظ فى الدعـوة الى عقائد الشيعة الذى غمر هذه المنطقة أن أحدا من معتنقى هذا المذهب أو دعاته عاش فى مدينة الأقصر أو حتى دخلها وذلك لأمرين هامين أولهما أن هذه المدينة كانت مكتظة بأقباط النصارى وثانيهما أن من سكنها من العلماء والفقهاء والمتصوفة كانوا يعتنقون المذهب السنى ويتعصبون له فظلت على أثر ذلك بمنأى عن تيار هذه الآراء والمعتقدات وانه فى اعتقادنا لو أن هذا المذهب عرف طريقه الى مدينة الأقصر وعاش فيهـا لنتج عن ذلك نهضـــة علمية وثراء فكرى عريض ولظهر فى هذه المدينة أدباء وشـــعراء سنيون وشيعيون يناهضون بعضهم ويذودون عن آرائهم باللسان والقلم كما حدث فى مدينـــة أسفون التى ظهر فيها كثير من الأدباء والشعراء الذين جادت قرائحهم بالجيد من النثر والنظم فى هتك آراء الشـيعة والمتشيعين . الا أنــه لا ينبغى أن يغيب عن ذهننا أن مدينة الأقصر وان كانت قـد بعدت

بعدا تاما عن هذا الصراع المذهبى الا أنها قد شهدت جدلا عقائديا بين علماء المسلمين وفقهائهم ورهبان المسيحية وقسيسيهم يدور حول ما يتعلق بالدين والعقيدة كان له دور ايجابى فعال فى أن يدخل فى الدين الاسلامى الحنيف كثير من أبناء المسيحية وقسيسيهم ورهبانهم . وفى عصر سلاطين المماليك كانت مصر محورا لنشاط علمى كبير يقصدها العلماء والطلاب من مختلف الأقطار شرقا وغربا وخير دليل على هذا النشاط ما خلفه علماء ذلك العصر من تراث ضخم فى مختلف العلوم والفنون وقد ساعد على ذلك ما أصاب المسلمين فى القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى من كوارث على أيدى المغول فى العراق والشام وعلى أيدى المسيحيين فى الاندلس بالاضافة الى أن احياء الخلافة العباسية على أيدى سلاطين المماليك ٦٥٩ هـ ١٣٥٧ م هيأ القاهرة أن ترث بغداد وأن تصبح مركزا للنشاط العلمى والدينى فى العالم الاسلامى . ومن أوجه النشاط فى هذا العصر كثرة المدارس والمساجد التى أنشأها سلاطين المماليك وأوقفوا عليها الأوقاف والأحباس واجزلوا فى العطاء للعلماء والفقهاء الذين يتولون التدريس بها بجانب الطلاب الذين يترددون عليها .

وقد أنشىء فى هذه الفترة فى مدينة الأقصر عدد من المكاتب (الكتاتيب) ومفرده كتاب بضم الكاف وتشديد التاء وهو نظام يشبه الى حد كبير نظام التعليم الابتدائى فى وقتنا الحاضر كان معمولا به فى عصر الأيوبيين والمماليك

وقد خصص لكل مكتب أو كتاب مؤدب أو فقيه أو عريف يتولى تدريس الصبية مبادىء الكتابة وحفظ بعض سور من القرآن الكريم وتبصيرهم بعقائد السنة وعلم الحساب وقد أورد (ابن الحاج) فى مدخله ما ينبغى أن يتحلى به المؤدب من صفات وما يجب أن يأمر به الصبية من آداب فنراه يقول : ينبغى على المؤدب أن يتدرج بالصبى فى تعليم الحروف وضبطها بالشكل حتى يتعود ذلك ثم بعد أن يتأكد أن الصبى قد أجاد ذلك يبدأ فى تعليمه قصار السور من القرآن الكريم ثم يعرفه بعقائد السنة وأصول الحساب وما يستحسن من المراسلات وحينما يبلغ الصبى السابعة من عمره يأمره بالصلاة وبر الوالدين والامتثال لأوامرهما بالسمع والطاعة كما انه أى ابن الحاج قد حذر المؤدب أو الفقيه تحذيرا كليا من أن يتخذ آلة لضرب الصبية مثل عصا اللوز اليابس أو الجريد المشرح أو الأسواط النوبية أو الفلقة وما أشبه ذلك لأن هذا لا يليق بحملة الكتاب العزيز . وقد كان الصبى فى المكتب هذا أو الكتاب يستخدم ما يسمونه « باللوح » وفكرة استخدام اللوح هذه ظهرت فى عصر سلاطين المماليك وهو غالبا ما يكون من الصفيح على شكل مستطيل أو مربع يكتب عليه الصبى بالحبر ما يمليه عليه مؤدبه أو فقيهه من آيات القرآن الكريم أو العلوم الدينية ثم بعد أن يتأكد المؤدب أن الصبى قد أجاد حفظ اللوح هذا يأمره بمسحه بالليقة لكتابة غيره ويجب أن يراعى الصبى فى مسح لوحه طهارة

الليفة هذه أو الخرقة التى يستخدمها كما ان الماء الذى تبل به هذه الليفة أو الخرقة يجب أن يكون طاهرا نقيا .

وبجانب هذه المكاتب أنشئت كذلك مدرسة فى الأقصر لطلب العلم الشريف كما أشار الى ذلك كثير من المؤرخين . وهى تشبه الى حد كبير مرحلة التعليم الثانوى وقام على تدريس العلوم للطلبة فى هذه المدرسة كثير من المدرسين فى مختلف الفنون وللطالب الحق فى أن يختار المواد التى يرغب فى دراستها وله أيضا أن ينتقل من مدرس الى مدرس حتى يأخذ غايته فى مختلف العلوم وقد أقبل كثير من أبناء الأقصر على هذه المدرسة فى ذلك الوقت وكانوا بعد استكمالهم للدراسة غالبا ما يرتحلون الى مدارس قوص الجامعة أو يسيحون فى مختلف العواصم الاسلامية كالقاهرة أو الاسكندرية أو حلب أو دمشق أو مكة أو بغداد أو القيروان أو فاس ومنهم من كان يرجع الى بلده وأهله ليشغل مناصب رئاسية أو يتولى التدريس ومنهم من كان يفضل الاستقرار فى المكان الذى ارتحل اليه حتى وفاته .

وبجانب هذه المدرسة كان هناك عدد من الزوايا والمساجد التى تقوم بدور هام فى مجال الدراسة والتثقيف أيضا وهو ما كان يتمثل فى حلقات الوعظ والدرس التى كان يتولى عقدها والاشراف عليها العلماء والفقهاء ورجال الصوفية بالاضافة الى أن هناك بيوتا بالأقصر كانت منتدى علم وعلماء من أشهرها بيت أولاد الصابونى الذى كان

كثيرا ما يجتمع فيه طلاب العلم والمعرفة حول عالم أو فقيه نزل عند أولاد الصابونى هؤلاء وهو فى طريقه الى الحج أو التجارة أو السياحة ·

ولقد خرج من الأقصر فى عصر المماليك بصفة خاصة الكثير من العلماء والفقهاء الذين ساهموا بنصيب وافر فى نشر الثقافة الاسلامية من هؤلاء على سبيل المثال العالم الفقيه يوسف بن أحمد النجم بن يوسف أبو الحجاج الأقصرى المتوفى ٦٧٠ هـ ١٢٧١ م الذى ارتحل الى القاهرة وأقام فيها طيلة حياته منقطعا للتدريس فى مسجده بباب البحر والفقيه الأقصرى عبد الغفار بن نوح ٧٠٨هـ ١٣٠٨م صاحب كتاب الوحيد فى سلوك أهل التوحيد « مخطوط » والفقيه علاء الدين بن الصابونى الأقصرى الذى شرح تائية ابن الفارض ، والفقيه الشافعى حسان بن أبى القاسم ابن حسان الأقصرى المتوفى ٧٣١ هـ ١٣٢٠ م والعلامة صاحب الشروح والتصانيف محمد بن عبد اللطيف بن شمس الدين بن الفقى الأقصرى المتوفى ٨٨٢ هـ ١٤٧٧ م والقاضى محمد بن مسلم بن شرف الدين الأقصرى المتوفى ٦٨٥ هـ ١٢١٦ م وغيرهم كثيرون ·

الحياة الروحية

لقد ازدهرت الحياة الروحية فى مصر بوجه عام فى القرنين السادس والسابع من الهجرة وبوجه خاص فى صعيد مصر وقد ساعد على ذلك كثير من العوامل التى من

أبرزها أن الصعيد كان يسوده الأمن والهدوء وذلك بحكم موقعـــه الجغرافى بعيدا عن تيــار الحروب والمنازعات بين المسلمين أنفسـهم وبينهم وبين التتار فى المشرق والصليبيين فى بلاد الشام والفرنجه فى بلاد المغرب والأندلس كما ان صلاح الدين الأيوبى قد شـجع المتصـوفة على أن يسكنوا الصعيد كى يكونوا له عونا ونصيرا فى القضاء على مذهب الشيعة كما سبق أن أشرنا فأسس لهم الكثير من الربط والزوايا وأجزل لهم فى العطاء بالاضافة الى أن أهل الصعيد أنفسهم كانوا يحسون فى رجال الصوفية القرب من الله فالتفوا حولهم وفتحوا لهم قلوبهم وبيوتهم فى بشر وترحاب وأخذوا على أيديهم فى علوم الحقيقة والشريعة ، والمتصفح لكتاب الوحيد فى سلوك أهل التوحيد لابن نوح الأقصرى والطالع السعيد لأبى جعفر الادفوى يلمس ذكرا واضحا العديد من كبار رجال الصـوفية الذين عرفهم الصـعيد وعاشوا تحت وارف ظلاله خلال هذه الفترة ٠

وقد عرفت مدينة الأقصر فى عصرى الأيوبيين والمماليك بصفة خاصة الكثير من هؤلاء الصفوة الاخيار الذين كان لهم دور ايجابى فعال فى خلق المريد الصالح الذى عرف طريقه الى الله فى جلاء ووضـوح وتمسـك تمسـكا تاما بالفضيلة ومكارم الأخلاق على أيديهم ٠

من هـؤلاء العـــارف بالله الشيخ المربى أبو الحجاج الأقصرى المتوفى ٦٤٢ هـ ١٢٤٤ م الذى يعتبر مدرسة من مدارس التربية والسلوك فى القرن السابع الهجرى عرفها

الصعيد بوجه عام ومدينة الأقصر بوجه خاص وتخرج فيها العديد من المريدين والسالكين الذين نهجوا نهجه من بعده وساروا على هديه. وكان لهم أبعد الأثر فى هذا الجانب فى مختلف مدن الصعيد وقراه ودساكره ـ وابن عده جبريل بن عبد الرحيم بن غــــزى الشيخ الجليل المتوفى ٥٩٥ هـ ـ ١١٩٨ م والشيخ الورع أحمد النجم بن أبى الحجاج الأقصرى المتوفى ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ وحفيده الشيخ المكاشف جمال الدين بن محمد المتوفى ٦٩٦ هـ ـ ١٢٩٦ م والشيخ الصالح أبو العباس الملثم المتوفى ١٧٢ هـ ١٣٧٣ م الذى كان يقيم بمسجد بظاهر الأقصرين وانتفع على يده الكثيرون من أبناء هذه المدنية والشيخ عبد العزيز المنوفى المتوفى ٧٠٧ هـ الذى أخذ على يد شيخه أبى الحجاج الأقصرى وأقام بالأقصر مدة طويلة .

ولقد كان من أهم ما يميز الحياة الروحية فى مدينة الأقصر خلال القرنين السادس والسابع من الهجرة حلقات الدرس والوعظ التى كان يعقدها هؤلاء الشيوخ فى الزوايا والمساجد بالاضافة الى ظاهرة السماع التى ألفها النـــاس وتهافتوا عليها فى لهفة وشوق بالغين وتعتبر هذه الظاهرة من الظواهــر الأساسية التى عرفتهــا الحيــاه الروحية فى سائر أنحاء العالم الاسلامى وهى عبارة عن الذكر المصحوب بالانشاد على الآلات الموسيقية كالدف والطنبور والعود ، وقد ألف الناس فى الأقصر حضــور حلقات السماع هذه من بعد صلاة العشاء حتى مطلع الفجر وبصفة خاصة مساء

كل خميس وأحد من كل أسبوع وفى المناسبات والأعياد والمواسم أيضا ، كما انهم قد دأبوا على اقامة هذه الحلقات فى المساجد أو الزوايا أو الطرقات أو السواقى على ضوء الأسرجة والقناديل ويتصدر السماع هذا منشد أو قوال يحفظ الكثير من القصائد فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام وآل البيت وفى الفضيلة والمكارم الأخلاقية والمواعظ ويرددها بصوت عذب شجى يأخذ بألباب السامعين فيتواجدون حتى يبلغ الوجد بهم غايته ويتمايلون يمنة ويسرة ويرددون بصوت عال مرتفع أسماء الله الحسنى أو نخرج منهم عبارات غير مفهومة كما أن منهم من يقع على الأرض فاقدا لوعيه ٠

الآثار الاسلامية

كانت مدينة الأقصر فى العصر الاســـلامى بعد أن اصطبغت بالصبغة الاسلامية تكتظ بالعـديد من الربط والزوايا والأسبلة والمساجد .. وفى عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة أخذ الاتجاه فى بناء هذه الربط والمساجد يأخذ صورة واضحة . فيحدثنا عبد الغفار بن نوح الأقصرى الذى كان يعيش فى هذه المدينة فى عصر سلاطين المماليك فى أكثر من موضـــع عن رباط أقيم فى الأقصر كان مقصـــد بعض العلماء والفقهاء والصـــوفية وكذا عن مسجد ظاهر الأقصرين يقصده الغرباء من التجار والعابرين من الجنوب الى مدينة قوص يقضون فيه بعض الليالى ويستريحون فيه من عناء السفر . وقد اندرست مع الأسف كل هذه الأماكن ولم يبق لها من أثر .

الا أن أهم أثر اسلامى عرفته هذه المدينة هو مسجد العارف بالله سيدى أبى الحجاج الأقصرى الذى ما زال خالدا حتى يومنا هذا فوق أطلال معبد آمون بالأقصر وقد سبق

آن أشرنا الى قصة بناء هــذا المسجد فى معرض حديثنا عن نشأة الاقصر الاسلامية ٠

وحينما توفى أبـو الحجاج الاقصرى سنـة ٦٤٢ هـ ١٢٤٢ م قام ابنه الأكبر المعروف بالحجاج أحمد النجم ببناء ضريح لوالده الشيخ تعلوه قبة كما يشير الى ذلك المؤرخ أبو جعفر الادفوى فى طالعــه السعيد ثم توالت على هــذا المكان يد الانشاء والتعمير فأقيم مسجد متواضع ومناره لاقامــة الشعــائر الدينية ٠ وقــد وصف العــالم الأثرى الانجليزى مستر كرزول هذه المنارة الأثرية بقوله انها مبنية من الطوب اللبن ومقواه بدعائم خشبية موضوعة على كـل جانب فى مستويات ثلاث وقد بنيت قنطرتها من الطوب الأحمر وسلمها عرضه ٧٥ سم وهو حلزونى وتتكون كل دوره من عدد ثلاث أو أربعة سلمة وحافة كل سلمة من الخشب الذى يمتاز بقوته ومتانته ثم يستطرد قائلا ان هذه المنارة على الطراز الفاطمى وتشــبه الى حـد كبير مئذنة الجيوشى التى شيدت فى عهد الوزير الفاطمى بدر الجمــالى ٤٨٧ هـ ١٠٩٤ م وفى عهد الخديوى عباس حلمى الثانى جدد هذا المسجد وانشئت المئذنة الحالية التى تقع بالجهة الغربية لضريح الشيخ ـ وقد زار هذا الأثر الاسلامى كثير من الأمراء والسلاطين فى عهد المماليك كما ان هناك عددا من المؤرخين والرحالة العرب قد شاهدوه وأشاروا الى ذلك فى مؤلفاتهم كابن بطوطة فى رحلته والادفوى فى طالعه السعيد وغيرهم ٠

وقد كانت تحيط بهذا المسجد من جانبه الشرقى جبانه مترامية الأطراف دلت عليها الحفريات التى أجريت أخيرا والتى كشفت عن رفاة المئات من العلماء والفقهاء والصوفية من بلاد المشرق والمغرب ...

وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يظل هذا المسجد رابضا فوق اطلال معبد آمون بالاقصر رغم ما بذل من جهود فى العهود السابقة لهدمه ولئن وصف بأنه مسجد متواضع من الناحية الفنية والمعمارية الا أنه يمثل فى هذا المكان الوحدانية على مدى سبعة قرون متعاقبة بعد أن ظلت هذه البقعة مهادا للديانة المصرية القديمة ومن بعدها المسيحية منذ فجر التاريخ وعلى أثر ذلك اكتسب هذا المسجد بدلالته التاريخية هذه شهرة واسعة النطاق فى مختلف العواصم الأوربية حتى أن السائحين الأجانب الذين يقصدون الأقصر لزيارة معالمها الأثرية يزورون هذا الاثر الاسلامى ويلتقطون لأنفسهم صورا تذكارية بالقرب منه .

الآثار القبطية

لقد أصبح واضحا أن مدينة الأقصر قبل الفتح العربى لمصر كانت تكتظ بالعديد من الكنائس والأديرة التى ظلت دون أن يمسها سوء من جانب المسلمين الذين كان طابع معاملتهم للأقباط طابع ود وتسامح واخاء ومساواة الا ان أغلب هذه الأماكن قد اضمحل شأنها تلقائيا وذلك لعوامل

طبيعية تتعلق برداءة جو هذه الأماكن وسوء تهويتها ، وفى القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادى اعتنى كثير من الرحالة الأوربيين بالتنقيب عن هذه الأماكن واستطاعوا أن يهتدوا الى الكثير منها ـ وقد دلت الحفريات فى هذه المنطقة على أن أغلب معابد قدماء المصريين قد تحولت أركانها الى كنائس وأديرة ، ففى وادى الملوك بالجانب الغربى من مدينة الأقصر يقع الدير البحرى الذى أقيم فى أوائل عصور المسيحية والذى كان معبدا للملكة حتشبسوت واستطاع رهبان المسيحية أن يحولوه الى مكان لعبادتهم وذلك بأن أخذوا مواد بنائه من المبانى القديمة التى كانت موجودة حول المعبد الا أن هذا الدير لم يكن صحيا وذلك لأن ردهاته كانت ضيقة تحتاج الى تهوية فلم يتناسب مع حياة الرهبان فاضطروا الى هجره ولم يبق منه سوى الصلبان على جدرانه وبعض هياكله وفى الجانب الشمالى من وادى الملكات غرب الاقصر وعلى مقربة من جبانة طيبة نشهد بقايا دير يسمى « دير المدينة » كان مقصدا لعمال الجبانة وخدامها نضيف الى ذلك دير تادرس المحارب وهو بالقرب من مدينة هابو ودير سانت تيودور ودير الأنبا باخوم الذى يقع بمدخل مدينة الأقصر من الجهة الشمالية وفى معبد الكرنك اكتشفت كنيستان الأولى فى مسجد الاله خنسو والثانية فى الفناء الواسع المسمى بنزهة تحتمس ولم يبق من آثارهما الا بعض صلبان محفورة وبارزة فى دوائر مفرغة وقد كانت هاتان الكنيستان مقصدا للحجاج فى عصور المسيحية ٠

كما أنه فى الجانب الغربى من معبد الأقصر كنيسة تطـل على النيل وأخـرى فى جانبه الشرقى (مسجد أبى الحجاج الحالى) ٠

وقد كانت هذه الكنائس والأديرة بجانب انها أماكن للعبادة مدارس أيضا يقصدهـا الكثـير من طلاب العـلم والمعرفة من أبناءالدين المسيحى يأخذون فيها على أيدى الرهبـان علـــوم اللاهوت والفلسفة وعلـم الطبيعيات والحساب ٠

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٣٣٤٥
ISBN ٩٧٧ ٧٢٨٤ ٠٤ ٧